دلالات المقطع الحواري في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي

(قراءة تأويلية دلالية في المقطع الحواري المفتتح للفصل الثّالث من الرواية(من ص77 إلى ص88)

Significances of the dialogic passage in the novel "Memory of the Body" by Ahlam Mosteghanemi
(An interpretive approach of the opening dialogic passage of the third chapter of the novel from p. 77 to p. 88)

د.نورة قريع /أستاذة مساعدة للتعليم العالي
المعهد العالي للغات بتونس (تونس) . grayaanoura@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024 / 08 / 25	2024 / 10 / 07	2024 / 12 / 01

ملخص البحث

يتناول المقال بالتحليل مقطعا حواريا مقتطفا من رواية "ذاكرة الجسد" للكاتبة الروائية "أحلام مستغانمي" يقع في بداية الفصل الثالث من الرواية ويمتد على إحدى عشر صفحة منه. وينطلق التحليل من مبدأين : أولهما انفتاح النص الروائي على قراءات عديدة بحكم خاصية التركيب التي يتسم بها ، وثانيهما أهمّية الحواروطرق كتابته في الكشف عن مكامن القيمة الفنّية والعمق الدّلالي للنص الرّوائي.

وكان هدفنا الأساسي من هذا البحث إبراز القيمة الدلالية للمقطع المذكور ومظاهر الإبداع والتجاوز فيه وذلك عبر مراحل ثلاث انطلاقا من بنية المقطع الحواري ودلالاتها ثم مضامينه وأهم الأبعاد الدلالية الكامنة فيها وصولا إلى لغة الحواروقضاياها.

الكلمات المفاتيح : رواية معاصرة، دلالات الحوار، قضايا إبداعية، أدب نسائي، التجاوز، إشكاليات الكتابة

Abstract

The article analyzes an extracted dialogue passage from the novel "Memory of the Body" by Ahlam Mostaganmi, located at the beginning of the third chapter of the novel and extending over eleven pages. The analysis is based on two principles: The first is the openness of the novel's text to multiple readings due to its structural characteristic, and the second is the importance of the dialog and its writing methods in revealing the artistic value and symbolic depth of the novel.

Our main objective was to highlight the significant value of the passage and the manifestations of creativity and transgression in it through three stages, starting from the structure of the dialog and its connotations, then its contents and the most important semantic dimensions inherent in it, up to the language of the dialog and its issues.

keywords: Contemporary novel, Dialogue significations, Creative issues, Women's literature, Transgression, Writing concerns.

1.المقدّمة:

لَمّا كَانَتْ الرِّوايَةُ مِنْ أَهَمّ الأَشْكَالِ الفَنّيَّةِ الرَّائِجَةِ فِي ثَقافَةِ العَصْرِ الحَديثِ ، فَقَدْ حَظيَتْ بِقَدْرٍ كَبيرٍ مِنْ البُحوثِ وَالدِّرَاسَاتِ تَتَنَاوَلُ خَصَائِصَهَا وَمُكَوّناتها وَتُحَاوِلُ أَنْ تَفُكَّ أَسْرارَها وَتَبْحَثَ عَنْ مَكامِنِ القيمَةِ العَميقَةِ اَلَّتِي تُتَوّجُها عَلَى رَأْسِ الفُنُونِ الأَدَبيَّةِ ، وَفِي خِضَمّ هَذَا الاِنْشِغالِ العَميقِ مَا انْفَكَ المُنَظّرونَ لِهَذَا الجِنْسِ يُؤَكّدُونَ عَلَى خَاصِيَّتَيْنِ بَارْزَتِينِ فيه، أوّلهُمَا انْفِتاحُ النَّصّ الرّوائيّ وَقابِليَّتُهُ لِاحْتِوَاءِ مَا لَا حَدَّ لَهُ مِنْ أَشْكالِ التَّعْبيرِ وَأَنْماطِ القَوْلِ وَأَساليبِ القَصّ حَتَّى نُعتَتْ الرِّوايَةُ بِكَوْنِهَا جِنْسًا حَاوِيًّا وَ بَحْرًا لَا قَاعَ لَهُ .

أَمَّا الخاصّيَّةُ الثّانيَةُ اَلَّتِي مَا فَتئوا يُرَدّدُونَهَا فَهِيَ قابِليَّتُها لِلتَّجْرِيبِ والتَّمَوْقُعِ مِن الفُنُونِ والْمَعارِفِ وَالثَّقَافَاتِ عَبْرَ العُصُورِ قَديمها وَحَديثها فَوُصِفَتْ لِذَلِكَ بِكَوْنِهَا "مخبر السّرد."1

وَمِن ثُمَّ فَلَا ضابِطَ يُقَيّدُ حُدودَها وَيَفْرِضُ عَلَيْهَا نَسَقًا مُعَيَّنًا ، كَمَا أَنَّ خَصَائِصَهَا الفَنّيَّةَ لَا تَنْحَصِرُ فِي وَجْهٍ مُحَدَّدٍ مِنْ وُجوهِ الإِبْداعِ وَلَا فِي نَهْجٍ مُعَيَّنٍ مِنْ مَناهِجِ السَّرْدِ ، وَإِنْ كَانَ الكُتَّابُ يَرُومُونَ إِحْداثَ الفَرَادَةِ وَإِخْراجَ أَعْمالِهِمْ إِخْراجًا فَرِيدًا مِنْ نَوْعِهِ يَكْشِفُ مَواهِبَهُمْ وَيُعَبّرُ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ المُتَمَيّزَةِ دُونَ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ . دَيْدَنُهُمْ البَحْثُ الدّائِمُ والْعَمَلُ عَلَى تَجْديدِ الأَشْكَالِ والْمَواضيعِ ، فَـ " يَمْضي الكاتِبُ الفَذُّ إِلَى تَجاوُزِ إِمْلاءاتِ النَّموذَجِ وَتَخَطّي بَوْتَقَةِ السّائِدِ وَاَلْمَأْلوفِ ."2

وَفِي سِيَاقِ البَحْثِ المُسْتَمِرّ عَن القيمَةِ الإِبْداعيَّةِ المُمَيّزَةِ لِلرّوَايَةِ العَرَبيَّةِ المُعاصِرَةِ يَنْدَرِجُ التَّساؤُلُ عَنْ كَيْفيَّةِ بِناءِ النَّصّ الرّوائيّ وَتَأَسُّس مُكَوّناتِهِ الدّاخِليَّةِ بِطَريقَةٍ تَخْلُقُ القيمَةَ الفَنّيَّةَ لِلنَّصّ الرّوائيّ وَتَتَجَلَّى مِنْ خِلالِها خاصّيَّةُ تَعَدُّدِ المَعْنَى وَعُمْقِ الدَّلالَةِ وانْفِتاحِ النَّصّ عَلَى قِراءاتٍ وَتَأْويلاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا وَلَا حَدّ . وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمّ خَصائِصِ النَّصّ الرّوائيّ اتّصافُهُ بِالْوَحْدَةِ والتَّرْكيبِ فِي آنٍ واحِدٍ وَآيَةُ ذَلِكَ تَكَوُّنُهُ مِنْ فُصولٍ مُتَراكِبَةٍ مُتَفاعِلَةٍ فِيمَا بَيْنَها .

وَلَمّا كَانَ عُنْوانُ الابداعِ الأَصْليّ وَمَنْبَعُهُ الأَوَّلُ هوَ الكاتِبُ الرّوائيُّ صاحِبُ الْخِيَارِ الرّوائيّ فَإِنَّ خُصوصيَّةَ كُلّ رِوايَةٍ تَنْبَعُ مِنْ الطُّرُقِ المَخْصوصَةِ اَلَّتِي يَتَوَخَّاهَا المُبْدِعُ فِي بِناءِ أَثَرِهِ الأَدَبيّ والتَّعْبيرِ مِنْ خِلالَهُ عَنْ رُؤاه وَتَصَوُّرَاتِهِ وَتَجْرِبَتِهِ الفَنّيَّةِ الخاصَّةِ . وَعَلَى هَذَا الأَساسِ كَانَ تَوَجُّهُنَا لِدِرَاسَةِ رِوايَةِ " ذاكِرَةِ الجَسَدِ " لِأَحْلامِ مُسْتَغَانَمِي ، تِلْكَ الرِّوايَةُ اَلَّتِي عَرفَت رَوَاجًا وَاسِعًا وَلَفَتَتْ الاِنْتِباهَ إِلَى طَريقَةِ الكِتابَةِ فِيهَا، جَعَلَتْ البَاحِثِينَ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ مَكْمَنِ اَلْطَرافَةِ والْعُمْقِ فِي هَذِهِ الرِّوايَةِ . وَلَعَلَّ مِنْ أَسْبابِ إِلْحاحِ هَذَا السُّؤالِ - اَلَّذِي يَنْطَبِقُ فِي الحَقيقَةِ عَلَى كُلّ رِواياتِ هَذِهِ الكاتِبَةِ المُتَميّزة - هوَ الجَمْعُ بَيْنَ البَسَاطَةِ وَالتَّعْقِيدِ و بَيْنَ التَّقْليدِ وَالتَّجْديدِ: فَاَلْقِصَّةُ المَرْوِيَّةُ فِي رِوايَتِها تِلْكَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكونَ قِصَّة حُبٍّ أَشْبَهَ بِالْقِصَصِ اَلَّتِي سَادَتْ عِنْدَ الرُّومِنْطِيقِيّينَ وَلَكِنَّ التَّعَمُّقَ فِي دِراسَةِ هَذِهِ الرِّوايَةِ

يوقِفُنا عَلَى ضُروبٍ لَا حَصْرَ لَهَا مِنْ مَظاهِرِ التَّعْقيدِ وَعَلَى إِشْكالاتٍ لَا حَدَّ لَهَا يَتَعَلَّقُ بَعْضُها بِطَريقَةِ القَصِّ وَ ضَمَائِرِ السَّرْدِ وَبَعْضُها الآخَرُ بِلُغَةِ الخِطابِ وَتَوْزيعِ عَناصِرِهِ مِمَّا يَجْعَلُ هَذِهِ الرِّوايَةَ مُتَأَبِّيَةً عَنْ التَّصْنيفِ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى وَجْهٍ واحِدٍ مِنْ وُجوهِ التَّأْويلِ وَالتَّقْييمِ .

وَمِن أَبْرَزِ آليّاتِ السَّرْدِ اَلَّتِي جَعَلَتْ لِهَذِهِ الرِّوايَةِ طابِعًا خَاصًّا وَمُمَيَّزًا المَقاطِعَ الحِواريَّةَ المُطَوَّلَةَ اَلَّتِي تَحْتَلُّ حَيِّزًا هَامًّا مِنْ النَّصِّ الرِّوائِيِّ .

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ طُرُقُ الحِوارِ وَأَنْماطُهُ بَيْنَ باطِني وَمُعْلَنٍ وَتَداخلَتْ كِتابَتُهُ مَعَ كِتابَةِ البَوْحِ والِاعْتِرافِ مُتَراوِحَةً بَيْنَ الإِفْصاحِ والْإِضْمارِ وَبَيْنَ التَّذَكُّرِ والِاسْتِباقِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ دِراسَةَ الحِوارِ فِي الأَدَبِ الحَديثِ قَدْ بَلَغَتْ أَشْوَاطًا مِنْ التَّطَوُّرِ وَتَغَذَّتْ مِنْ فُروعٍ مَعْرِفيَّةٍ شَتَّى مِمَّا أَكْسَبَ هَذَا العُنْصُرَ السَّرْديَّ فِي الدِّراساتِ الحَديثَةِ قيمَةً تَخْتَلِفُ عَنْ قيمَتِهِ فِي مَناهِجِ التَّحْليلِ التَّقْليديَّةِ اَلَّتِي اعْتَبَرَ روّادُها أَنَّ الحِوارَ لَيْسَ جَدِيرًا بِأَنْ يُدْرَسَ وَيُحَلَّلَ مِثْلَ عَناصِرِ السَّرْدِ الأُخْرَى إِذْ هوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ سِوَى طَريقَةٍ لِمَلْءِ صَفَحاتٍ إِضافيَّةٍ مِنْ صَفَحاتِ الرِّوايَةِ حَيْثُ " الشَّخْصيَّةُ تَتَكَلَّمُ لِمَلْءِ بَياضِ الصَّفْحَةِ مُحاكيَةِ الحَياةِ اَلَّتِي لَا يوجَدُ بِهَا قَصٌّ بَلْ مُحادَثاتٌ (. .) إِنَّ الخِطابَ المُباشِرَ هوَ اقْتِصادٌ وَراحَةٌ لِلْكَاتِبِ والْقارِئِ مَعًا ."3

فِي حِينِ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الحِوارَ " بِمَا أَنَّهُ يُقْرَأُ بِسُرْعَةٍ وَيُمْكِنُ إِنْشَاؤُهُ بِلُغَةٍ أَقَلَّ أَدَبيَّة وَكِتابَتُهِ بِعِنَايَةٍ أَقَلَّ فَهُوَ أَقَلُّ قيمَةً مِنْ السَّرْدِ والْوَصْفِ".4

وقد أفضت البحوث السّردية اليوم إلى إعادة النّظر في هذا العنصر و إيلائه ما يستحقّ من الاهتمام لا سيما وهو عنصر ملازم للسّرد القصصي قَديمه وحَديثه إلاّ ما نَدَرَ من النّصُوص، وهوَ في أشكَال السَّرد المُختلفةِ صِنْوٌ لتعَدُّد الأصْواتِ داخل الخطابِ السّرديّ ومُؤَشّرٌ على ثَراءِ المعْنى واخْتِلاف وجْهَاتِ النّظر إلى الواقع وسواء كان عرضُ الحوَارِ مباشرا أو مَسْرودا، كامِلا أو مبْتُورا، مُعْلَنا أو باطنيّا، فإِنَّ تحْلِيلَه وقراءَتهُ يَظَلاّنِ مُرتَهنيْنِ للسّيَاقِ الذِي وردتْ فيه المقاطعُ الحِواريّة، محْكُوما بقوانِين الجِنْس السَّرْديّ ومُقْتضيَاتِ الكتَابةِ في إطاره والعَصْرِ الذي ينْتَمي إليْه النَّصُ السّرديُّ.

وعليه فإنَّ تَحْديدَ الإطار الذي سيُدرسُ فيه الحِوار أمرٌ ضَرُورِي لكلّ عَمَل تحْليليٍّ لهذا العُنْصُرِ. ومنَ المُفيد جدّا في هَذا الإطار الانْطلاَقُ منْ نصّ حوَاري مُحدَّد وتفْكيكه والتَّعمُّق فيه وفي وظائفه ودلالاته قبْل المُرُور إلى اسْتخلاص خصوصيّاته المُجْمَلة داخل أيّ خطاب روَائِي أَوْ أيّ نمَطٍ مِنْ أنْماط الخِطاب السّرِدي الأُخْرى ف "ما يوجد بالأسَاس هو النَّصُّ و لا شيْء غَيرهُ فليْسَ لنا من سَبيل إلى بنَاء عَالم خَيالي منْ خلال ذَلك النَّصّ إلاَّ بإخْضَاعهِ إلَى نَمَط مَخْصُوصٍ منَ القراءَة" 5

ولَمَا كانَ للحوَار في الرّوَايَة المُعَاصرَة مَنْزلَة رَفيعَة تَبْرزُ منْ خلَال اعْتمَاده بكَثَافة في الرّوَايَات المُعَاصرَة فقدْ بدَا لنَا منَ الضَّرُوري تَأَمُّل هَذَا العُنْصُر وَالمَزيد منَ البَحث في مَا يمثّلُه منْ قيمَة مُضَافَة إلى النَّصّ الرّوَائِي لا سيمَا أنَّ لَهُ دَوْرا هَامّا في إبْرَازِ خُصُوصيَّاتِ الكتَابَة السَّرْديَّة الرّوَائيَّة ويُسهمُ في تَشْكِيل مَلَامح الرُّؤْيَة الفنّيَّة المتحَكّمَة في الخطَاب الرّوَائي إذْ فِيه "تَتجلَّى خَصَائصُ النَّصّ الإبداعيّ منْ حيثُ هُوَ تَشْكِيلٌ للمَادَّة الخَامِ التي هي اللُّغَةُ وهو

حَامِل لقدرٍ مِنْ مَضَامِين النَّصّ وفي تَرْكِيبه وشَكْلِهِ تَتَجَلَّى السُّبُلُ الابدَاعيَّة التي يَتَوَسَّلُ بِهَا الكَاتِبُ لِبُلُوغ غَرَضِهِ الدَّلَالِي والفَنّي "6

ولَا شَكَّ أَنَّ وَضْعِيَّةَ الحِوَارِ في الرِّوَايَةِ الحَديثَةِ تَسْتَوْجب المَزيدَ منَ البَحْثِ في جَوانِب مُخْتَلِفَة قَصْدَ الوُقُوفِ عَلَى دَوْرِهِ فِي دَفْعِ الخِطَابِ الرِّوَائِي نَحو التَّجَاوُزِ والتَّطَوُّرِ وهوَ مَا يَقْتَضِي اعْتِمَادَ زَوايَا نَظَرٍ جَدِيدَةٍ لِهَذَا العُنْصُرِ مُسْتنِدَة إِلَى الآفَاقِ الوَاسِعَةِ التي فَتَحَتْهَا مَبَاحِثُ تَحْلِيلِ الخِطَابِ وسَمَحَتْ بتَنَاوُلِهَا عنْدَ دِرَاسَةِ أَشْكَالِ الإِبْدَاعِ المُخْتَلِفَةِ وَخَاصَّة منْهَا الرِّوَايَةُ المُعَاصِرَةُ التي تَتَمَيَّزُ بالسّعْي إِلَى "كَسْرِ النَّمُوذَج السَّائِدِ ومُسَاءَلَةِ الثَّابِت منْ مُكَوِّنَاتِهِ وَالسَّالِك من شُرُوطِهَا والقَائِم مِن أَشْكَالِهَا وأَبْنِيَتِهَا عَبْرَ مَسَالِكِ المُغَامَرَةِ وقَصْدَ تَحْقِيقِ المُغَايَرَةِ للسَّائِدِ السَّرْدِي"7 وهَذَا الطَّرْحُ يَدْعُونَا إِلَى إِيجَادِ مَدَاخِلَ جَدِيدَةٍ لِقِرَاءَةِ النَّصِّ الحِوَارِي تَأْخُذُ فِي الاعْتِبَارِ سِيَاقَات النَّصّ الرِّوَائِي المُعَاصِر وَمَا فِي خِطَابِهِ مِنْ تَعْقِيدٍ وَتَرْكِيبٍ فِي مُسْتَوياتٍ أَسَاسِيَّةٍ أَبْرَزُهَا لُغَةُ الخِطَابِ وتَوْلِيدُ الدَّلَالَةِ وَهَذَانِ المُسْتَوَيَانِ هُمَا اللَّذَان اخْتَرْنَا تَنَاوُلَهُمَا فِي قِرَاءَتِنَا لمَقْطَع حِوَارِي مُطَوَّلٍ وَرَدَ فِي مُقَدِّمَةِ الفَصْلِ الثَّالِث مِنْ رِوَايَةِ ذَاكِرَة الجَسَد تَمَيَّزَ بِعُمْقِهِ وَثَرَائِهِ الدَّلَالِي.

2.منزلة المَقطع الحواري من الرّواية و دواعي دراسته:

تَمَيَّزَت أَحْلام مُسْتغَانمي بإنتَاج رِوَائِي غَزِير إِلَّا أَنَّ رِوَايَتَهَا ذَاكِرَةُ الجَسَد قدْ اعْتُبِرَت عنْدَ جُلّ النُّقَّادِ والدَّارِسِينَ نُقْطَة فَارِقَة في تَارِيخ الرِّوَايَة المُعَاصِرَة إِذْ اخْتَصَّتْ هَذِه الرِّوَايَة بِجُهْد كَبِير فِي تَشْكِيل خِطَابِهَا وبُنْيَتِهَا السَّرْدِيَّة، ولعَلَّ أَبْرَزَ مَا تَمَيَّزَ به هذَا الخِطَابُ إِسْنَادُ الكَاتِبَةِ لِفعْل السَّرْد إِلَى بَطَلِ الرِّوَايَة (خَالِد) الذي سَيَتَوَلَّى رِوَايَةَ قِصَّةِ غَرَامِهِ بِفَتَاةٍ جَزَائِرِيَّةٍ الْتَقَاهَا بِفَرَنْسَا وَتَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْد أَنَّهَا ابْنَةُ رَفِيقِهِ فِي النِّضَال التَّحْرِيرِي ضِدَّ الاسْتِعْمَارِ الفَرَنْسِي وَكَانَ هَذَا الأَخِير قَدْ مَاتَ شَهِيدا فِي احْدَى المَعَارِك تَارِكا ابْنَتَهُ الرَّضِيعَةَ لتَكْبُرَ فِي الجَزَائِر وتَنْتَقِلَ فِيمَا بَعْد إِلى فَرَنْسَا للدِّرَاسَة وفِي هَذِهِ الأَثْنَاء تلْتَقي ب"خَالِد" الرَّسَّام الذي غَادَرَ وَطَنَهُ دُون رِجْعَةٍ مُنْذُ نِهَايَةِ الاسْتِعْمَار.

وقَدْ اخْتَارَت كَاتِبَةُ الرِّوَايَةِ إِسْنَادَ فِعْلِ السَّرْدِ إِلَى البَطَلِ لتُضْفِيَ عُمْقا مُضَاعَفًا عَلَى النَّصِّ السَّرْدِيّ وَتَعْقِيدًا فِي تَرْكِيبَةِ الرِّوَايَةِ لَا سِيَمَا أَنَّ الرَّاوِي المُتَكَلِّمَ يَذْكُرُ مُنْذُ بِدَايَةِ الرِّوَايَة أَنَّهُ بصَدَدِ كِتَابَةِ رِوَايَةٍ يَرْوِي فِيهَا قِصَّتَهُ مَعَ الفَتَاةِ التي أَحَبَّهَا وَلَكِنَّهُ فِي الوقْتِ نَفْسِهِ صَاغَ خِطَابَهُ بِصيغَة رَسَائِلِيَّة يَتَوَجَّهُ فِيهَا بالكَلَام إِلى حَبِيبتِهِ التي تَزَوَجَت مِنْ رَجُلٍ آخَرَ تَارِكَةً وَرَاءَهَا الرَّاوِي البَطَل الذي اكْتَفَى في نِهَايَة المَطَاف بتَخْلِيدِ قصَّةِ حُبِّهِ الفَاشِلَةِ فِي رِوَايَةٍ جَعَلَ فِيهَا حَبِيبَتَهُ التي فَارَقَتْهُ مُتَلَقِّيَة مُبَاشِرَة لخِطَابِهِ الرَّسَائِلِيّ ، وَأَدَّى هَذا التَّرْكِيبُ المُمَيِّزُ لِضَمَائِرِ السَّرْد إِلَى تَدَاخُلِ عِدَّة عَنَاصِر فِي الخِطَابِ الرِّوَائِي، مِن ذَلِكَ ظُهُورُ خَصَائِص الكِتَابَةِ الرَّسَائِلِيَّة مُتَدَاخِلَةً مَعَ السَّرْدِ الحِكَائِي وَمَعَ كِتَابَةِ البَوْحِ والتَّذَكُّرِ بِمَا يُحَاكِي السِّيرَةَ الذَّاتِيَّةَ.

وَلَعَلَّ هَذَا التَّشَابُكَ والتَّدَاخُلَ فِي خَاصِيَّاتِ السَّرْدِ وَبِنَائِهِ الفَرِيدِ مِنْ نَوْعِهِ قَدْ انْعَكَسَ أَيْضًا عَلَى خَاصِّيَّات المَقَاطِع الحِوَارِيَّة التي زَخَرَتْ بِهَا الرِّوَايَة حَيثُ تَدَاخَلَتْ فِي ثَنَايَا تِلك المَقَاطِعِ الضَّمَائِرُ والْتَبَسَتْ وُجُوهُ التَّلَقِّي لِخِطَاب الشَّخْصِيَّاتِ المُشَارِكَة فِي الحِوَارِ الذي احْتَلَّ حَيِّزًا هَامًّا مِنْ مِسَاحَةِ الرِّوَايَةِ، وَتَمَيَّزَ خَاصَّةً بطول مَقَاطِعِهِ التي كَانَ النَّصِيبُ الأَكْبَر مِنْهَا جَامِعًا بَيْنَ بَطَلَيْ الرِّوَايَةِ خَالِد وحَيَاة، وَمنها المَقْطَعُ الحِوَارِي الذِي نَدْرُسُهُ وَهوَ مقْطَعٌ تَمَيَّزَ بامْتِدَادِهِ عَلَى مَدَى أَكْثَر مِن عَشْر صَفَحَاتٍ فَضْلًا عَنْ مَوْقِعِهِ المِفْصَلِيّ مِنْ مَسَارِ الحِكَايَة المَرْوِيَّة وَمِنَ

الخِطَاب الرّوَائِي عُمُومًا. إذ هُوَ يَرْسُمُ نُقْطَة البِدَايَةِ للعَلاَقة الغَرامِيَّة التي سَتَجْمَعُ بَيْنَ بَطَلَيْ الرّوَايَة عَلَى مَدَى بَقِيَّةِ صَفَحَاتِها، تِلْكَ العَلاَقَةُ التي سَتَرْبُطُ بَيْنَ خَالِد الرَّسَّام المُغْتَرِبِ فِي فَرَنْسَا وَأَحْلاَم أَوْ حَيَاة (اسمهَا الثَّانِي) الفَتَاةُ التي تَصْغُرُهُ بعشرينَ سَنَة والتي كَانَ قد تركَها رَضيعَةً في الجَزَائر ليَلْتَقي بهَا بعد سبْع وعِشْرِينَ سَنَة في فرنْسَا ويتعلّق بهَا.

يقَعُ هَذَا المَقْطَع الحواري إذًا في بِدايةِ الفَصْلِ الثَّالث منَ الرّوَايَة، وكَانَت بِدايَة اللّقاءِ بيْن خَالد وأَحْلاَم قدْ انْطَلَقَت في نهاية الفصْل الثَّاني حين كانَ البَطَلُ يَنْتظرُ ظُهُورَ حبيبته وزيَارَتَهَا لمَعْرض الرَّسْم الذي أَقَامَهُ في فرنْسَا والذي شهد يوْمُه الأوَّل مقَابَلَتَهَا لَه وتعرُّفَه عَليها ووعدها له بزيارَة ثَانية ظلَّ يرْتَقِبُها طيلَة الأيَّام العَشَرَة السَّابِقَة، ليَتَحَقَّقَ الوَعْدُ في اليَوْمِ الأَخِيرِ مِن المَعْرِضِ وَلِيَكُونَ بَيْنهما هَذَا الحِوَار المُطَوَّلُ مُؤَشِّرًا لبِدَايَةِ مُغَامرة عشْقيَّة بينهُما فريدةٍ مِنْ نوعِها وهي المُغامرَةُ التي ستؤسِّسُ الهَيْكَلَ الرَّئيسيّ للحِكاية المرْويَّة، وهو ما عبَّر عنه البَطَلُ عند اعْلاَنه في نِهايَة الفصْل الثَّاني من الرّواية عنْ حدوث اللّقَاءِ المُرْتَقب بقَوله: "ما كدْت في اليوم التَّالي أدخل القاعَة وأجْلس في الصَّالون لأطالعَ جريدتي حتَّى رأيتُكِ تدْخُلين، كُنْت تتقدَّمينَ نحوي وكأنَّ الزَّمنَ يَتَوَقَّف انبهارًا بك، وكأن الحُبَّ الذي تجَاهلني كثيرا قبل هذا اليَوْم قدْ قرَّرَ أخيرا أن يَهَبَنِي أكثر قصصه جنونا"8

وَلِهَذَا المَقْطَعِ الحِواريّ خُصوصيّاتٌ مُمَيَّزَةٌ دَعَتْنَا إِلَى اتّخاذِهِ مادَّةً لِلتَّحْلِيلِ المُعَمَّقِ وَمَسْلَكًا إِلَى إِبْرازِ دَوْرِهِ فِي تَشْكِيلِ الخُصوصيَّةِ الإِبْداعيَّةِ لِلْكِتَابَةِ الرّوائيَّةِ عِنْدَ أَحْلامِ مُسْتَغَانَمِي وَمَدَى مَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَظاهِرِ التَّجاوُزِ والْعُمْقِ.

إِذْ تَتَجاوَزُ قيمَةُ هَذَا المَقْطَعِ الحِواريّ وَغَيْرِهِ مِنْ المَقاطِعِ الحِواريَّةِ المَبْثوثَةِ فِي الرِّوايَةِ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ آليَّةً مِنْ آليّاتِ العَرْضِ والْكِتابَةِ السَّرْديَّةِ ، وَلَا تَنْحَصِرُ أَهَمِّيَّتُهُ فِي تَمْثيلِهِ لِوَظائِفِ الأُسْلوبِ المُباشِرِ فِي الكِتابَةِ السَّرْديَّةِ . وَكَانَ المُهْتَمُّونَ بِهَذَا العُنْصُرِ وَمِنْهُمْ جِيرَارْ جِينَاتٍ وغَيْرُهُ قَدْ رَكَّزُوا عَلَى خاصّيَّةِ مُطابَقَةِ المَقْطَعِ الحِواريّ لِلْعَالَمِ وَالْمَعْروضِ مُطابَقَةً تامَّةً مُعْتَبِرِينَ أَنَّ " الأُسْلوبَ المُباشِرَ هوَ الوَسيلَةُ الوَحيدَةُ لِإِلْغاءِ كُلِّ اخْتِلافٍ بَيْنَ اَلْخِطابِ السَّرْديّ والْعالَمِ اَلَّذِي يَعْرِضُهُ فَاَلْكَلِماتُ تَطابُقُ الكَلِماتِ... وَهُوَ مَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى الأَحْداثِ غَيْرِ القَوْليَّةِ وَلَا حَال الخِطابِ المَنْقولِ."9

و عِلَّةُ تَجاوُزِ الحِوارِ لِتِلْكَ القيمَةِ الأُسلوبيَّةِ أَنَّ الكِتابَةَ اَلَّتِي يُجَسِّدُها المَقْطَعُ الحِواريُّ فِي الرِّوايَةِ المُعاصِرَةِ هِيَ كِتابَةٌ مُخْتَرِقَةٌ لِلْمَأْلُوفِ والسّائِدِ مِنْ أَنْماطِ الكِتابَةِ وَطُرُقِ تَحْليلِها وَتَأْويلِها مِنْ جَوانِبَ قَدْ لَا تَظْهَرُ إِلَّا بِاَلْتَمَعُّنِ اللَّصيقِ فِي النَّصِّ وَتَقْليبِهِ مِنْ وُجُوهِهِ المُخْتَلِفَةِ ، وَلَيْسَ فَقَطْ مِنْ حَيْثُ هوَ أُسْلوبٌ مِنْ أَساليبِ العَرْضِ فَمِن المُؤَكَّدِ أَنَّ " تَوْزيعَ مادَّةِ القِصَّةِ عَلَى الوَصْفِ والسَّرْدِ والْحِوارِ الباطِنِيّ لَيْسَ تَوْزِيعًا عَفْويًّا مَوْكولًا لِلصُّدْفَةِ وَإِنَّمَا هوَ داخِلٌ فِي تَصَوُّرٍ لِلْبِناءِ مُعَيَّنٍ وَخادِمٍ لِإِنْشاءِ جَماليَّةٍ خاصَّةٍ وَمُعَبِّرٍ عَنْ دَلالَةٍ مُحَدَّدَةٍ أَيْضًا ." 10

وَتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ المَقْطَعِ الحِواريّ اَلَّذِي نُحَلِّلُهُ فِي عِدَّةِ مَناحٍ تَجْعَلُهُ مِحْوَرِيًّا فِي الرِّوايَةِ و تَتَحَدَّدُ هَذِهِ الوُجوهُ فِي مَا يَلِي:

- يُمَثِّلُ هَذَا المَقْطَعُ البِدايَةَ الحَقيقيَّةَ لِلْقِصَّةِ الغَرامِيَّةِ فَهُوَ اللِّقاءُ اَلَّذِي سَيَرْسُمُ عَلاقَةَ البَطَلِ بِاَلْبَطَلَةِ ، فَهُوَ فِي وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِهِ أَحَدُ عَتَباتِ النَّصِّ الرِّوائيِّ الدّاخِلِيَّةِ وَقَدْ أَطَّرَهُ الرَّاوِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى البِدايَةِ والِانْتِقالِ إِلَى مَرْحَلَةٍ جَديدَةٍ فِي آخِرِ الفَصْلِ الثَّانِي .
- هوَ مُؤَشِّرٌ عَلَى خُصوصيّاتِ الجِنْسِ الرِّوائيِّ بِجَمْعِهِ بَيْنَ مِحْوَرَيْ المَوْضوعِ اَلْغِرامِيِّ العاطِفِيِّ وَتَمَحْوَرِهِ حَوْلَ ذاتيهِمَا، وَمِن خِلالِ مَا سَيتَبَادَلَانِهُ مِنْ أَقْوالٍ سَتَتَجَلَّى طَبيعَةُ العَلاقَةِ بَيْنَهُمَا حَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا كَمَا

ستَتوَضَّحُ دَوافِعُها وَ خَلْفِيَّاتُهَا الاِجْتِماعيَّةُ والنَّفْسيَّةُ المُرْتَبِطَةُ بِطَبِيعَةِ كُلِّ شَخْصيَّةٍ وَسِمَاتِهَا وَ مَسارِ حَياتِه.

- يَجْمَعُ هَذَا المَقْطَعُ كَمًّا مِنْ تَعْقيداتِ الكِتابَةِ وَيَكْشِفُ مَدَى تَداخُلِ عَناصِرِها فَفِيه تَتَجَلَّى خُصوصيّاتُ لُغَةِ الكِتابَةِ و تَطْرَحُ إشْكالاتِ عَلاقَتِها بِلُغَةِ الشَّخْصِيَّاتِ المُتَكَلِّمَةِ وَكَذَلِكَ بِتَصَوُّراتِ الكاتِبَةِ وَرُؤْيَتِها لِطُرُقِ نَقْلِ الخِطابِ المَقولِ عَلَى لِسانِ الشَّخْصِيَّاتِ . فَضْلًا عَنْ طُرُقِ نَقْلِ الحِوارِ الباطِنِيّ وَعَلاقَتِهِ بِالْحِوَارِ المُصَرَّحِ بِهِ.
- يَتَشَابَكُ نَصُّ الحِوارِ مَعَ نَصِّ الرِّوايَةِ فَيَتَعَذَّرَ فَصْلَهُ شَكْلِيًّا عَنْ نَصِّ الخِطابِ الرِّوائِيّ بِسَبَبِ أَنَّ الحِوارَ مَنْقولٌ عَلَى لِسانِ الرَّاوِي المُتَكَلِّمِ اَلَّذِي هوَ طَرَفٌ فِي الحِوارِ ، وَعَلاقَتُهُ بِهِ هِيَ عَلاقَةُ تَذَكُّر وَعَوْدَة إِلَى مُلابَساتِ الْمَاضِي وَلَكِنَّهُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ يُؤَسِّسُ مِنْ خِلالِهِ البِناءَ الرِّوائِيَّ وَيَرْسُمُ خُطوطَ المَراحِلِ الآتيَةِ مِنْ خِلالِ تَعْليقِهِ عَلَى مَا يَقُولُهُ البطْلان وَسَعْيُهُ إِلَى رَبْطِهِ بِمَسارِ الأَحْداثِ فَضْلًا عَنْ جَعْلِهِ مَسْلَكًا لِلْفَهْمِ والتَّأَمُّلِ والاِعْتِرافِ...

هَذِهِ الوُجوهُ تَدْعُو إِلَى اسْتِقْراءِ الدَّلالاتِ الكامِنَةِ خَلْفَ هَذَا المَقْطَعِ والتَّساؤُلِ عَنْ وُجوهِ الإِبْداعِ والتَّجاوُزِ اَلَّتِي تَتَجَلَّى لَنَا بِفِعْلِ قِراءَةِ هَذَا المَقْطَعِ وَتَأْويلِهِ .

يَقْتَضِي مِنَّا تَحْقيقَ هَذِهِ المَقاصِدِ تَأَمُّلَ تَفاصيلِ المَقْطَعِ الحِواريّ وَمُلابَساتِهِ وَمُكَوِّناتِهِ وَ مَقاطِعِهِ فِي مَرْحَلَةٍ أولَى قَبْلَ المُرورِ إِلَى قِراءَةِ دَلالاتِهِ واسْتِخْلاصِ خُصُوصِيَّاتِهِ .

3.في البنية العامّة للمقطع الحواري ودلالاتها:

3. 1. مكونات المقطع الحواري:

يَعْرِضُ الرَّاوِي مِنْ خِلالِ المَقْطَعِ الحِواريّ المَذْكورِ تَفاصيلَ حَديثِهِ مَعَ الفَتاةِ اَلَّتِي زَارَتْهُ فِي مَعْرِضِهِ لِلْمَرَّةِ الثّانيَةِ ، وَقَدْ عُرِضَ المَقْطَعُ الحِواريُّ مُبَاشِرًا بِاعْتِمَادِ أَفْعالِ الإِسنادِ القَوْلِيّ لِنَقْلِ الأَدْوارِ الكَلاميَّةِ لِلطَّرَفَيْنِ "قلتُ.. قلتِ.."

واللّافِتُ لِلنَّظَرِ إِسْنادُ أَفْعالِ القَوْلِ إِلَى الفَتاة بِاعْتِبَارِهَا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ مُتَلَقّيَةً لِخِطَابِ الطَّرَفِ الثَّانِي فِي الحِوارِ (بَطَلُ الرِّوايَةِ خالِد) وَللرَّاوِي السّارِدِ فِي نَفْسِ الوَقْتِ بِاعْتِبَارِهَا مُتَلَقّيَةً لِلْخِطَابِ الرِّسائِلِيّ . يُعْتَبَرُ هَذَا المَقْطَعُ الحِواريُّ مِنْ أَطْوَلِ المَقاطِعِ الحِواريَّةِ الواردَةِ فِي الرِّوايَةِ وَهُوَ مَا يُؤَشِّرُ عَلَى مَنْزِلَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ لِهَذَا المَقْطَعِ الحِواريّ فِي مَسارِ الرِّوايَةِ وَمَآلاتِها المُقْبِلَةِ .

3. 2. خصوصيّات البنية المقطعيّة و دلالاتها :

إِذَا نَظَرْنا إِلَى هَذَا المَقْطَعِ الحِواريّ وِفْقَ مَنْطِقِ التَّحْليلِ القَصَصيّ الَّذِي يَقْتَضِي وُجودَ خُطَّةٍ تَنْظيميَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يَنْتَظِمُ عَلَى أَسَاسِهَا البِناءُ السَّرْديُّ وَتَتَرابَطُ وَفقَهُ مَراحِلُهُ . نَسْتَخْلِصُ بِناءَ هَذَا المَقْطَعِ عَلَى ثُنائيَّةِ الثَّباتِ والتَّحَوُّلِ فِي المَكانِ والزَّمانِ . حَيْثُ ابْتَدَأَ اللِّقاءُ اَلَّذِي أُعْلِنَ عَنْهُ الرَّاوِي بِجُمْلَةٍ سَرْديَّةٍ مُقْتَضَبَةٍ "الْتقيْنا إِذًا !"11

وَقَدْ اسْتَمَرَّ اللِّقاءُ فِي قسمِهِ الأَوَّلِ والبطلانِ ثابِتانِ فِي مَكانِهِمَا اَلَّذِي اخْتارَاه داخِلَ فَضاءِ مَعْرِضِ الرَّسْمِ قَبْلَ اغلاقِهِ بِقَلِيلٍ وَكَانَا قَدْ بَدَآ الحِوارَ وَاقِفِينَ فِي البِدايَةِ ثُمَّ جالِسينَ " أَمَامَ فِنْجانِ قَهْوَةٍ وَزُجاجَةِ كُوكَا جَلَسْنَا"12

وَاخْتَصَّ هَذَا الجُزْءُ مِنْ الحِوارِ بِدَافِعِ الرَّغْبَةِ فِي الحَدِيثِ والتَّعارُفِ ، وَاتَّسَمَ هَذَا الحَديثُ بِالِانْزِلاقِ تَدْرِيجِيًّا مِنْ حَديثِ البَهْجَةِ والسُّرورِ بِاللِّقاءِ والتَّعْبيرِ عَنْ مَشاعِرِ السَّعادَةِ بِالْاكْتِشافِ وَالِانْكِشَافِ إِلَى حَديثِ الشُّجونِ وَاسْتِذْكارِ مَا يُثِيرُ اَلْحُزْنَ وَالأَسَى مِنْ ذِكْرَياتِ الْمَاضِي وَافتقاد الأَهْلِ اَلَّذِينَ تُرِكُوا مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ فِي أَرْضِ الوَطَنِ، وَعَلَى وَقْعِ هَذِهِ المَشاعِرِ الحَزينَةِ اَلَّتِي أَثَارَتْهَا الذِّكْرَياتُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ انْتَهَتْ المَرْحَلَةُ الأُولَى مِنْ الحِوارِ وَرِحْلَةُ الِاسْتِقْرارِ فِي المَكانِ وَتَحَوَّلَتْ رَغْبَةُ المُتَحَاوِرِينَ نَحْوَ هَدَفٍ جَديدٍ وَهُوَ التَّعَرُّفُ إِلَى ردهاتِ المَعْرِضِ وَلَوْحاتِهِ والِانْتِقالِ إِلَى الحَرَكَةِ داخِلَ الفَضَاءِ وَمِن خِلالِهِ كَشفُ مَرامِي صاحِبِ اللَّوْحاتِ وَمُيُولَاتِهِ وَأَفْكارِهِ وَفِي المُقَابِلِ تَفاعُلُ الفَتاةِ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ وَكَشْفُها هِيَ بِدَوْرِهَا عَنْ مَلامِحِ شَخْصِيَّتِها وَأَفْكارِها . وَقَدْ أَعْلَنَ الرَّاوِي المُتَكَلِّمُ عَنْ بِدايَةِ هَذَا القِسْمِ الثَّانِي مِن الحِوارِ مِنْ خِلالِ اسْتِبْطانٍ حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ وَحَدَّثَ بِهِ الفَتاةَ المُتَلَقِّيَةَ لِلرِّوَايَةِ عَلَى أَساسِ أَنَّهَا الرِّوايَةُ اَلَّتِي كَانَ البَطَلُ بِصَدَدِ تَأْليفِها بِقَوْلِهِ : " تُراكُ عِنْدَئِذٍ أَردتِ أَنْ تَضَعِي نِهايَةً لِمَوْجَةِ الحُزْنِ اَلَّتِي فَاجَأْتِنِي (. .) عِنْدَمَا نَهَضْتُ وَقُلْتُ : " أَيْمَكَنَنِي أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى لَوْحاتِكَ " .13

وَهَكَذَا كَانَ القِسْمُ الثَّانِي مِنْ المَقْطَعِ الحِواريِّ حَرَكَةً فِي المَكانِ والزَّمانِ وَغَوْصًا فِي كَشْفِ خُصوصيّاتِ الطَّرَفَيْنِ المُتَحَاوِرِينَ ، فَمِن الحَديثِ عَنْ الذِّكْرَياتِ المُشْتَرَكَةِ فِي الجَزائِرِ إِلَى الحَديثِ عَنْ اَلْأَفْكارِ اَلْخاصَّةِ وَالْمِيُولَاتِ الثَّقافيَّةِ والْفَنِّيَّةِ ، وَكَانَتْ خاتِمَةُ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الحِواريَّةِ فِي المَعْرَضِ وُصُولًا إِلَى النِّهَايَةِ اَلَّتِي ضَبَطَ حَدَّها الزَّمَنِيَّ الرَّاوِي المُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ : " انْتَهَى مَوْعِدُنا الأَوَّلُ عِنْدَ الظُّهْرِ " 14

إِنَّ النَّظْرَةَ الأُولَى لِمَسارِ هَذَا المَقْطَعِ الحِواريِّ تُؤَدِّي بِنَا إِلَى اسْتِخْلاصِ انْطِلاقِ النَّصِّ الحِواريِّ مِن السُّنَنِ المَعْهودَةِ فِي كِتابَةِ الحِوارِ مِنْ حَيْثُ الشَّكْلُ العامُّ مِنْ جِهَةٍ وَمِن حَيْثُ إِسْهامُهُ فِي دَفْعِ المَسارِ القَصَصِيِّ وَحَلْحَلَةِ الأَحْداثِ مِنْ وَضْعٍ إِلَى آخَرَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي تَرْسيخِ العَلاقَةِ الغَراميَّةِ النّاشِئَةِ وانْتِقالِها مِنْ مَرْحَلَةِ التَّعَرُّفِ والْإِعْجابِ إِلَى مَرْحَلَةِ العِشْقِ وَالتَّعَلُّقِ الشديدِ .وَمِن هُنَا يَتَأَسَّسُ المِحْوَرُ اَلْمَضْمونِي الرَّئيسي لِلرِّوَايَةِ وَهُوَ مِحْوَرُ العِشْقِ اَلَّذِي سَتُبْنَى عَلَى ضَوْئِهِ كُلَّ مَعاني الرِّوايَةِ وَمُفارَقاتِها مُحَقِّقًا بِذَلِكَ الوَظيفَةَ الرَّمْزِيَّةَ الأُولَى لِلْحِوارِ بِمَا أَنَّ " إِجْراءَ حِوارٍ مَعْنَاه تقاطعُ صَوْتَيْنِ فِي سِيَاقٍ كَلَامِي واحِدٍ مِنْ أَجْلِ إِنْتاجِ المَعْنَى ."15

وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ وُجوهِ اَلْطَرافَةِ فِي بِنْيَةِ هَذَا المَقْطَعِ الحِواريِّ ظاهِرَةُ تَعْليقِ الرَّاوِي المُتَكَلِّمِ عَلَى هَذَا اللِّقاءِ أَثْناءَ الحِوارِ انْطِلاقًا مِنْ المَسافَةِ اَلَّتِي يَنْظُرُ مِنْ خِلالِها إِلَى هَذَا الحَدَثِ بِاعْتِبَارِهِ ذِكْرَى يُسَجِّلُها فِي رِوايَتِهِ المَوْعودَةِ وَلَكِنْ أَيْضًا اسْتِباقًا لِما سَيَأْتِي مِنْ مَنْظورِ اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا اَلَّتِي وَقَعَ فِيهَا اللِّقاءُ ومن ذلك قوله في نهاية الحوار: "كُنْت أَشْعُرُ بِأَنَّنَا فِي بِدايَةِ شَيْءٍ مَا (. .) كَانَ هُنَاكَ الكَثيرُ مِنْ الأَشْياءِ اَلَّتِي لَمْ نَقُلْها بَعْدُ بَلْ إِنَّنَا لَمْ نَقُلْ شَيْئًا فِي النِّهَايَةِ نَحْنُ أَغْرَبنا بَعْضنا بِحَديثٍ مُحْتَمَلٍ" 16

وَيَعْكِسُ هَذَا التَّعْليقُ ثَراءَ الحِوارِ بِالْأَبْعَادِ الرَّمْزِيَّةِ والدَّلالاتِ العَميقَةِ اَلَّتِي تَتَجاوَزُ قيمَتُهُ فِي حَدِّ ذاتِهِ لِتَشْمَلَ الخِطابَ الرِّوائِيَّ بِرُمَّتِهِ إِذ يُؤَسِّسُ لِبِنَاءِ صورَةٍ مُعَقَّدَةٍ لِلْفَاعِلِينَ فِي الرِّوايَةِ وَ خاصَّةً صورَةَ البَطَلِ وَمَنْظورِهِ لِلْأَحْداثِ بِاعْتِبَارِهِ رَاوِيًا لَهَا وَمَرْوِيًّا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ وَمِن ثُمَّ تَعَقُّد بناء الخِطابِ الرِّوائِيِّ وَمُخالَفَتُهُ لِلسُّنَنِ المَعْهودَةِ فِي الحِكايَةِ، و يَلْعَبُ تَعَقُّدُ الضَّمائِرِ وَتَداخُلَها داخِلَ المَقْطَعِ الحِواريِّ وَاَلْتَوازي بَيْنَ الظّاهِرِ مِنْهَا والْباطِنِ دَوْرًا رَئِيسِيًّا فِي وَسمِ الخِطابِ الرِّوائِيِّ بِقَدْرٍ مِنْ التَّجاوُزِ والابداعِ المُمَيِّزِ لِهَذِهِ الرِّوايَةِ . وَسَيَتَجَلَّى هَذَا الجانِبُ الإِبْدَاعِيُّ فِي تَفاصيلِ بِناءِ

المَقْطَعِ الحِواريّ وَمَا يَسْتَتْبِعُها مِنْ أَوْجُهِ الدَّلالَةِ وَالقَضَايَا المُخْتَلِفَةِ وَلَاسِيمَا مَا تَعَلَّقَ مِنْهَا بِدَلالاتِ العَلاقَةِ بَيْنَ المُتَحَاوِرِيْن وَخَاصَّةً إِذَا مَا أَدْرَجْنا هَذِهِ العَلاقَةَ فِي سِيَاقِ الكِتابَةِ الرِّوائيَّةِ النِّسائيَّةِ اَلَّتِي تُمَثِّلُ هَذِهِ الرِّوايَةَ مُكَوّنًا مِنْ مُكَوِّنَاتِهَا.

أ. في دلالات المضامين المُتبَادَلَة بين المتحاورين وأشكال التفاعل في شأنها:

تَنْدَرِجُ دِراسَةُ العَلاقَةِ بَيْنَ المُتَحَاوِرِين وَدَلالاتها انْطِلاقًا مِنْ المَقْطَعِ الحِواريّ فِي إِطارِ الكَشْفِ عَنْ مَدَى أَهَمّيَّةِ الحِوارِ وَدَوْرِهِ فِي تَأْسيسِ خُصوصيّاتِ المَضْمونِ الرِّوائيّ المُعاصِرِ وَمَا يَطْرَحُهُ مِنْ قَضَايَا مُتَعَلِّقَةٍ بِالْمِحْوَرِ العاطِفيّ خاصَّةً ، وَهُوَ مِحْوَرٌ قَديمٌ قِدمَ السَّرْدِ، و مَازَالَ يُعْتَبَرُ مِنْ المَحاوِرِ المُهَيْمِنَةِ عَلَى الكِتَابَاتِ القَصَصيَّةِ وَالرِّوَائِيَّةِ . وَيُمَثِّلُ تَحَدِّيًا أَمَامَ الكاتِباتِ الرِّوَائِيَّاتِ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ لِصُعُوبَةِ الخُروجِ بِهَذَا المَوْضوعِ مِنْ مُسْتَتَبِعَاتِهِ التَّقْليديَّةِ المَأْلُوفَةِ والصّوَرِ المَعْهودَةِ لِلْعَلَاقَةِ بَيْنَ طَرَفَي العِشْقِ المَرْأَةِ والرَّجُلِ والْإِخْراجِ الفَنّيّ الإِبْدَاعِيّ لِهَذِهِ العَلاقَةِ اَلْمَحْكومَةِ بِسُنَنٍ راسِخَةٍ تَكَادُ تَكونُ مُلازَمَةً لَهَا فِي الأَدَبِ عُمُومًا والْأَدَبِ العَرَبِيّ خُصُوصًا .

وَلَعَلَّ تَشْكيلَ اَلْحِوارِ مواجَهَةً مُباشِرَةً بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ المَعْنيّيْنِ بِهَذِهِ العَلاقَةِ يُمَثِّلُ أَفْضَلَ اخْتِبارٍ لِمَدَى تَوْفيقِ الكاتِبَةِ فِي تَجْديدِ خِطابِها الرِّوائيّ وَ وَسمِهِ بِالْعُمْقِ والثَّراءِ وَاَلْفَرادَةِ والْإِبْداعِ فِي هَذَا السِّيَاقِ وَهِيَ وُجوهٌ تَتَجاوَزُ المَعانيَ الظّاهِرَةَ لِتَشْمَلَ مَا وَراءَ السُّطورِ وَمَا تَحْمِلُهُ الصّياغَةُ الفَنّيَّةُ لِأَقْوالِ المُتَحَاوِرَيْنَ فِي عَلاقَتِها بِمُلابَساتِ القَوْلِ وَسياقاتِهِ مِنْ تَجَلّياتِ الرُّؤْيَةِ الفَنّيَّةِ المُتَحَكِّمَةِ فِي الخِطابِ السَّرْديّ . .

فَمَن أَبْرَزِ خُصوصيّاتِ المَقْطَعِ الحِواريّ المَدْروسِ تَمَيُّزُ العَلاقَةَ بَيْنَ طَرفَيْهُ (البَطَلِ وَاَلْبَطَلَةِ) بِوُجوهٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ التَّفاعُلِ وَلُغَةٍ مَخْصوصَةٍ تَمَيَّزَتْ بِهَا الأَدْوارُ الكَلاميَّةُ مَعَ مَا تَخَلَّلَهُ مِنْ مَقاطِعَ سَرْديَّةٍ وَحِواراتٍ باطِنيَّةٍ تَتَناغَمُ مَعَ مَنْطوقِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ وَتُضيءُ وُجوهَ الدَّلالَةِ اَلَّتِي تَحْمِلُها العَلاقَةُ بَيْنَهُمَا .

وَقَدْ مَثَّلَ مَسارُ الحِوارِ بَيْنَ البَطَلَيْنِ فِي مُراوَحَتِهِ بَيْنَ الاِسْتِقْرارِ والْحَرَكَةِ - كَمَا بَيَّنَّا فِي العُنْصُرِ السّابِقِ - مُراوَحَةً بَيْنَ الذّاتيّ والْمَوْضوعِيّ والماضي و الْحاضِرِ وَ المَحْسوسِ والْمَعْنَويّ .

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا تَوْزيعَ مَضامينِ الحِوارِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ أَمْكَننا تَبَيُّنُ ظَاهِرَتَيْنِ اخْتَصَّ بِهِمَا هَذَا التَّوْزيعُ :

- أَوَّلُهُمَا التَّشارُكُ فِي كُلِّ مَوْضوعٍ مُتَداوَلٍ بَيْنَهُمَا وَتَناوُلِهِ بِنَفْسِ القَدْرِ مِنْ حَجْمِ الكَلامِ فَلَمْ يَسْتَأْثِرْ أَيٌّ مِنْ الطَّرَفَيْنِ بِمَوْضوعٍ دُونِ الطَّرَفِ الآخَرِ، وَهُوَ مَا يَعْكِسُ نَجاحَ الكاتِبَةِ فِي تَأْسيسِ صورَةٍ نَموذَجيَّةٍ لِطَرَفَيْ العِشْقِ يَتَسَاوَى فِيهَا الرَّجُلُ والْمَرْأَةُ فِي المُبادَرَةِ بِالْقَوْلِ والتَّعْبيرِ دُونَ هَيْمَنَةِ طَرَفٍ عَلَى آخِرَ وَدُونَ وُجودِ أَيّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظاهِرِ اَلْدونيَّةِ لِأَيّ طَرَفٍ، وَبِذَلِكَ حَقَّقَتْ الكاتِبَةُ مَفْهومَها لِلْمُسَاوَاةِ اَلتّامَّةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ مِنْ خِلالِ بِناءِ هَذَا المَقْطَعِ الحِواريّ ، فَضْلًا عَنْ تَجَلّي اشْتِراكِ الطَّرَفَيْنِ فِي جُمْلَةٍ مِنْ القيَمِ، وَفِي رُؤْيَتِهِمَا لِلْوَاقِعِ المُحيطِ بِهِمَا سَواءٌ تَعَلَّقَ الأَمْرُ بِنَظْرَتِهِمَا إِلَى تَجْرِبَتِهِمَا الخاصَّةِ بَيْنَ الجَزائِرِ وَفَرَنْسَا أَوْ فِي أَفْكارِهِمَا المُتَعَلِّقَةِ بِالشَّأْنِ الثَّقافيّ والْأَفْكارِ المُجَرَّدَةِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ .

فَفِي المُسْتَوَى الأَوَّلِ كَشَفَ القِسْمُ الأَوَّلُ مِنْ الحِوارِ عَنْ أَوْجُهِ التَّقارُبِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ مِنْ خِلالِ اكْتِشافِهِمَا لِما يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا مِنْ ذِكْرَياتٍ وَخَاصَّة نِقاطَ الِالْتِقاءِ فِي مَسارِ حَياتِهِمَا الماضيَةِ وَمُحيطِهِمَا العائِليّ اَلَّذِي نَشَأَ فِيه فِي مَوْطِنِهِمَا المُشْتَرَكِ الجَزائِر . وَشَكَّلَتْ هَذِهِ النَّواحي المَوْضوعَ الأَساسي لِلْحَدِيثِ بَيْنَهُمَا وَمِحْوَرَ اِهْتِمامٍ مُشْتَرَكٍ وَلَعَلَّ

رَغْبَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي اكْتِشافِ الآخَرِ وَايْجَاد مواطِن تَقارُب بَيْنَهُمَا أَسْهَمَ فِي تَضَخُّمِ مِساحَةِ الحَديثِ عَنْ تِلْكَ المَشاغِلِ فِي الحِوارِ. وَلَعَلَّ المَوْضوعَ الأَكْثَرَ دَلالَةً فِي مَا تَناولَاه مِنْ حَديثٍ هوَ مَوْتُ الجَدَّةِ اَلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمَا " أَمَّا زَهْرَةٌ " حَيْثُ أَخْبَرَتْ الفَتاةُ مُحَاوِرَهَا عَنْ مَوْتِ الجَدَّةِ وَهُوَ مَا دَفَعَهُ إِلَى تَذْكُرِ طُفولَتِهِ واسْتِعادَةِ ذِكْرَيَاتِهِ مَعَ الجَدَّةِ المُتَوَفّاةِ وَلَعَلَّ هَذَا المَوْضوعَ كَانَ أَكْثَرَ إِحالَةً إِلَى اشْتِراكِ المُتَحَاوِرِينَ فِي الاِنْقِطاعِ عَنْ المَوْروثِ الثَّقافِيّ المَرْموزِ إِلَيْه مِنْ خِلالِ الجَدَّةِ ، فَضْلًا عَنْ الدَّلالَةِ الرَّمْزِيَّةِ اَلَّتِي يَحْمِلُهَا هَذَا الاِنْقِطاعُ بِإِحالَتِهِ عَلَى حَياةِ الاِغْتِرابِ وَالاِنْدِمَاجِ فِي حَضارَةٍ جَديدَةٍ حَيْثُ يُقِيمَانِ فِي فَرَنْسَا .

وَتَجَلَّى الاِهْتِمامُ المُتَكافِئُ بِهَذَا المَوْضوعِ فِي مَلْفوظِ المُتَحَاوِرِينَ وَتَعْبيرِهِمَا عَنْ مَشاعِرِ الحُزْنِ والْأَسَفِ وَخَاصَّةً عِنْدَ " خالِدٍ " اَلَّذِي انْتَابَتْهُ مَوْجَةٌ مِنْ الحُزْنِ والْحَنينِ دَفَعَتْ مُحاوِرَتَهُ إِلَى تَغْيِيرِ مَسارِ الحِوارِ والاِنْتِقالِ إِلَى مَرْحَلَةٍ جَديدَةٍ مِنْهُ .

أَمَّا المُسْتَوَى الثَّانِي مِنْ التَّكافُؤِ فَيَتَجَلَّى فِي تَقارُبِ الطَّرَفَيْنِ فِي المَشاغِلِ الفِكْرِيَّةِ والثَّقافِيَّةِ وَلَعَلَّ ذَلِكَ راجِعٌ إِلَى انْتِمائِهِمَا إِلَى المَجالِ الفَنِّيّ فَهُوَ رَسّامٌ وَهِيَ كاتِبَةٌ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا عَلاقَةٌ بِهِوايَةِ الآخَرِ إِذْ عَبَّرَتْ هِيَ عَنْ حُبِّهَا لِلرَّسْمِ وَأَنَّهَا كَانَتْ تَرْغَبُ فِي أَنْ تُصْبِحَ رَسّامَةً أَمَّا هوَ فَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ حُبِّهِ لِلْكِتَابَةِ وَأَنَّهُ يَرَاهَا مُناسِبَةً لَهُ مُعَبِّرَةً عَنْهُ . وَقَدْ نَجَمَ عَنْ هَذِهِ الخُصوصِيَّةِ الثَّقافِيَّةِ الجامِعَةِ بَيْنَ المُتَحَاوِرِينَ التِقاؤُهُمَا فِي مُسْتَوَى سِجِلّاتِ التَّعْبيرِ وَبَلاغَةِ الخِطابِ إِذْ كَانَ تَبادُلُهُمَا لِلْخِطَابِ بِلُغَةٍ تَتجاوز مُسْتَوَيات لُغَةِ التَّبادُلِ العاديّ بَيْنَ النّاسِ مِنْ غَيْرِ المَجالِ الثَّقافِيّ اَلَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهُ بَطَلَا هَذَا الحِوارِ ، وَتَجَلَّى ذَلِكَ خاصَّةً فِي بِدايَةِ الحِوارِ حَيْثُ بَدَتْ طَرِيقَةُ البَطَلِ فِي التَّعْبيرِ عَنْ شَوْقِهِ لِمُحاوِرَتِهِ غايَةً فِي الشَّاعِرِيَّةِ كَمَا بَدَتْ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ مِنْ الحِوارِ قُدْرَةُ المُتَحَاوِرِينَ عَلَى التَّلاعُبِ بِالْأَلْفَاظِ والْمَعاني المُسْتَتِرَةِ وَتَمَكّنِهِمَا مِنْ خُيوطِ البَلاغَةِ وَمَتاهاتِها . يَظْهَرُ ذَلِكَ مَثَلًا فِي المَقْطَعِ التَّالِي :

"قُلْتُ لَا تَأْسَفِي قَدْ جِئْتُ مُتَأَخِّرَةً عَنْ العُمُرِ بِعُمر.

قُلْتُ كَمْ يَلْزَمُنِي مِنْ الوَقْتِ لِتَغْفِرَ لِي .

قُلت مَا يُعَادِلُ ذَلِكَ العُمْرَ مِنْ العُمْرِ ." 17

وَقَدْ أَضْفَى هَذَا الضَّرْبُ مِنْ التَّخاطُبِ لَمْسَةً فَنِّيَّةً شِعْرِيَّةً عَلَى الحِوارِ جَعَلَتْهُ أَقْرَبَ إِلَى النَّصِّ الشِّعْرِي وَلُعْبَةِ الرَّقْصِ بِالْكَلِمَاتِ .

و بَدَا الْمُتَحَاوَرَانِ فِي هَذَا المُسْتَوَى عَلَى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنْ التَّفاهُمِ والتَّناغُمِ وَهُوَ مَا يَظْهَرُ فِي اعْتِمادِ الرَّاوِي ضَميرَ المُتَكَلِّمِ الجَمْعِ عِنْدَ حَديثِهِ عَنْ مَشاعِرِهِ و مَشاعِرِ مُخاطَبَتِهِ إِلَى حَدِّ تَوَحُّدِهِمَا وَتَوافُقِهِمَا التّامّ فِي رُؤْيَةِ الأَشْياءِ كَمَا أَوْحَى بِهِ إِلَيْه كَلامُ مُشارَكَتِهِ فِي الحَديثِ فَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِالْقَوْلِ : " كَانَتْ لَنَا الرَّغْبَةُ نَفْسُها فِي الحَديثِ " 18 وَأَشَارَتْ هِيَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهَا " أَشْعُرُ أَنَّنَا نَحْنُ الاِثْنَيْنِ نَرَى الأَشْياءَ بِإِحْسَاسٍ واحِدٍ "19

وَنَخْلُصُ هُنَا إِلَى أَنَّ مُؤَشِّراتٍ كَثيرَةً فِي المَقْطَعِ الحِواريّ دَلَّتْ عَلَى تَوَحُّدٍ فِي مَسارِ اكْتِشافِ كُلٍّ مِنْ طَرَفَيِ الحِوارِ لِلْآخَرِ بِمَعْنَى تجَلّي الآخَرِ نَقيضًا فِي الجِنْسِ وَمُعادِلًا فِكْرًا وَثَقافَةً وَلُغَةً وَرُؤى . وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الظَّواهِرُ تُسْتَشَفُّ مِنْ مَلْفوظِ المُتَحَاوِرِينَ فَإِنَّ المُفارَقَةَ تَكْمُنُ فِي كَشْفِ المَقْطَعِ الحِواريّ وَمَسارِهِ عَنْ ظَواهِرَ أُخْرَى تُعَبِّرُ عَنْ الحَواجِزِ والْفَوارِقِ بَيْنَ عَقْليَّتَيْ المُتَحَاوِرِينَ وَمَنْظورِهِمَا لِلْوَاقِعِ وَقَضَايَاه .

وَهُوَ مَا يَقُودُنَا إِلَى تَناوُلِ الظّاهِرَةِ الثّانيَةِ المُمَيّزَةِ لِطُرُقِ التّفاعُلِ مَعَ المَضامينِ المُتَداوَلَةِ فِي الحِوارِ وَهِيَ تَتَعَلّقُ بِأَدَواتِ الكِتابَةِ وَرَمْزِيَّةِ أَساليبِ السَّرْدِ وَطُرُقِهِ ، إِذْ لَمْ يَقْتَصِرْ التّفاعُلُ بَيْنَ المُتَحَاوِرَيْنِ عَلَى تَفاعُلِ القَوْلِ مَعَ القَوْلِ التّالِي لَهُ ، كَمَا هوَ مَأْلوفٌ فِي كِتابَةِ المَقْطَعِ الحِواريّ بَلْ نَشَأَتْ عَبْرَ المَسارِ الحِواريّ وُجوهٌ أُخْرَى مِنْ التّفاعُلِ بَعْضُها ظاهِرٌ فِي مَلْفُوظَاتِ المُتَحَاوِرِينَ وَبَعْضُها ضِمْنِيٌّ خَفِيٌّ عَنْ الأَنْظارِ. وَذَلِكَ لِاحْتِوَاءِ المَقْطَعِ الحِواريّ لِأَقْوالٍ باطِنِيَّةٍ تَتَفاعَلُ مَعَ أَقْوالٍ عَلَنِيَّةٍ فَضْلًا عَنْ مُخالِفَةِ الأَقْوالِ البَاطِنِيَّةِ لِما تُعْلِنُهُ بَعْضُ الأَقْوالِ المُعْلَنَةِ والْتِباسُ زَمَنِ القَوْلِ فِي بَعْضِ تَعْليقاتِ الرَّاوِي اَلَّتِي تَتَخَلَّلُ الحِوارَ وَتَقْطَعُهُ أَحْيَانًا ، لِتَتَّخِذَ فِي الآنِ نَفْسِهِ طابَعَ الحِوارِ الباطِنِيّ وتَلْتَبِسُ مَعَ الخِطابِ التُّرسِلِيّ الموَجَّهِ إِلَى بَطَلَةِ الرِّوايَةِ حَياةً فَضْلًا عَنْ اِتّخاذِها صيغَةَ البَوْحِ والاِعْتِرافِ وَأَحْيَانًا اسْتِباقِ الأَحْداثِ وَاَلْتَلْميحِ إِلَى مَآلاتِها .

وَمِن أَمْثِلَةِ هَذَا الضَّرْبِ مِنْ التّداخُلِ والْتِباسِ طَبيعَةِ القَوْلِ وَتَحْديدِ وَجهَتِهِ، تَعْليقُ الرَّاوِي عَلَى مَا سَمِعَهُ مِنْ البَطَلَةِ حَوْلَ مَوْقِفِها مِنْ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ و مُيولِها الفَنّيّة والْحِسّ الوَطَنِيّ عِنْدَهَا بِقَوْلِهِ : " أَيْمَكِنُ أَنْ تَجْتَمِعَ هَذِهِ المُصادَفاتُ فِي مُصادَفَةٍ واحِدَةٍ وَكُلُّ هَذِهِ الأَشْياءِ اَلَّتِي كَانَتْ قَناعَتِي الثّابِتَةِ وَأَحْلَامِي الوَطَنِيَّةِ الأُولَى فِي امرأة واحدة."20 فَالرَّاوِي هُنَا لَمْ يُؤَطِّرْ هَذَا القَوْلَ وَلَمْ يُحَدِّدْ إِنْ كَانَ مُتَزَامِنًا مَعَ لَحْظَةِ التَّحَاوُرِ أَمْ أَنَّهُ لَاحِقٌ بِهَا مُتَّصِلٌ بِزَمَنِ كِتابَةِ الرِّوايَةِ اَلَّتِي يُسَجِّلُ فِيهَا ذَلِكَ الحِوارُ .

وَمِن أَمْثِلَةِ هَذَا الضَّرْبِ مِنْ الخِطابِ كَذَلِكَ تَعْليقُ الرَّاوِي عَلَى حَديثِ حَياة فِي باطِنِهِ بِقَوْلِهِ : " فَقَدْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ إِمَّا ... مِنْ عِطْرِها السِّرّي ... وَكَانَتْ لَهَا تِلْكَ الحَرارَةُ التِّلْقائِيَّةُ اَلَّتِي تَفيضُ بِهَا الأُمَّهاتُ عِنْدَنَا ... تِلْكَ الكَلِماتِ اَلَّتِي تُعْطِيكَ فِي جُمْلَةٍ واحِدَةٍ مَا يَكْفيكَ مِنْ الحَنانِ العُمْرِ كُلِّهِ"21

وَفِي هَذَا التَّعْليقِ عَبَّرَ عَنْ رُؤْيَتِهِ الخاصَّةِ لِلْجَدَّةِ بِمَا هِيَ رَمْزٌ لِلْهُوِيَّةِ الأَصْليَّةِ وَ اعْتِبارُها نَموذَجًا لِلْمَرْأَةِ اَلَّتِي يَتَصَوَّرُها وَيَحِنُّ إِلَيْهَا فِي مُقابِلِ خِطابٍ لِلْبَطَلَةِ لَمْ يَحْمِلْ مَا أَشَارَ إِلَيْهُ ذَلِكَ القَوْلُ مِنْ حَنينٍ إِلَى الْمَاضِي وَاَلْنَّماذِجِ التَّقْليديَّةِ ، إِذْ نَجِدُهَا تَكْتَفي بِالتَّعْليقِ عَلَى مَوْتِ الجَدَّةِ بِعِبارَةٍ مُقْتَضَبَةٍ بِقَوْلِهَا : " لَقَدْ غَيَّرَ مَوْتُها حَياتَنا بَعْضَ الشَّيْءِ فَهِيَ اَلَّتِي رَبَّتْنا فِي الواقِعِ ."22

أَمَّا مَا خَفِيَ مِنْ مَظاهِرِ التَّعارُضِ والتَّصادُمِ بَيْنَ طَرَفَي الحِوارِ فَيَعْكِسُهُ خاصَّةً مُنْطَلَقاتِهِمَا وَطُرُقُهُمَا فِي التَّعامُلِ مَعَ مجرياتِ حَياتِهِمَا فَفِي حِينِ كَانَتْ الفَتاةُ مُقْبِلَةً عَلَى الحَياةِ الغَرْبِيَّةِ مُبارِكَةً لِفِكْرَةِ انْتِقالِهَا مَعَ عائِلَتِها بَعْدَ مَوْتِ والِدِها لِلْعَيْشِ فِي فَرَنْسَا وَتَأَقْلُمِها مَعَ هَذَا العالَمِ المُنْفَتِحِ نَجِدُ الرَّجُلَ مُمَثَّلًا فِي خالِد مَشْدُودًا إِلَى أُصولِهِ مُحَافِظًا عَلَى مَا أَسْمَاه " عُقَدَهُ الدّاخِليَّةَ " وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي رِوايَتِهِ لِقِصَّتِهِ مَعَ الفَتاةِ الفَرَنْسِيَّةِ اَلَّتِي لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ رَسْمِها عارِيَةً فِي إِحْدَى وَرشاتِ الرَّسْمِ وَاكْتَفَى بِرَسْمِ وَجْهِها وَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَى الإِفْصاحِ لِحَبيبَتِهِ عَنْ سِرِّ هَذَا السُّلوكِ مُكْتَفِيًا بِخِطابٍ باطِنِيٍّ حَلَّلَ فِيه شَخْصِيَّتَهُ المُتَمَسِّكَةَ بِالتَّقالِيدِ بِقَوْلِهِ : " وَلَكِنَّنِي أَنْتَمِي إِلَى مُجْتَمَعٍ لَمْ تَدْخُلِ الكَهْرَباءَ بَعْدُ دَهالِيزَ نَفْسِهِ ." 23

ب.في سنن العلاقة العشقية وموازين القوى بين الرجل والمرأة:

إِذَا تَجَاوَزْنَا تَأَمُّلَ العَناصِرِ القَوْليَّةِ فِي المَقْطَعِ الحِواريّ وَمَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَضامينَ مُحَدَّدَةٍ يَشْتَرِكُ فِي تَأْسيسِها الْمُتَحَاوِرَانِ وَرُمنا النَّظَرَ فِي خَلْفيّاتِ الأَقْوالِ فِي عَلاقَتِها بِبَطَلَيْ الرِّوايَةِ وَهُمَا خالِد وَحَياة بِاعْتِبَارِهِمَا الطَّرَفَيْنِ

اَلْأَساسيَّينِ فِي عَلاقَةِ الحُبِّ اَلَّتِي سَتَنْشَأُ بَيْنَهُمَا وَهِيَ عَصَبُ الرِّوايَةِ وَمَوْضوعُها المِحْوَريُّ ، فَإِنَّنَا نَتَوَقَّفُ عَلَى مَدَى خُروجِ هَذِهِ العَلاقَةِ عَنْ المَأْلوفِ اِنْطِلاقًا مِمَّا عَكَسَتْهُ المُناوَرَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ تَجَاذُبَاتٍ تَنِمُّ عَنْهَا طَبيعَةُ أَقْوالِ كُلِّ شَخْصيَّةٍ وَتَعْبيرِها عَنْ مَواقِفِها مِنْ الطَّرَفِ الآخَرِ وَتَعامُلِها مَعَهُ وَمَعَ مَا تَكْشِفُهُ أَقْوالُ كُلِّ طَرَفٍ مِنْ سِمَاتِهِ وَخُصوصيّاتِهِ .

وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ السُّنَنِ اَلَّتِي غَلَبَتْ عَلَى تَصْويرِ العَلاقَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ والْمَرْأَةِ فِي الرِّوايَةِ العَرَبيَّةِ المُعاصِرَةِ وَخَاصَّةً فِي الرِّواياتِ النِّسائيَّةِ تَبَنّي المَرْأَةِ خِطَابًا انْهِزاميًّا يَضَعُها فِي مَوْقِعِ الضَّحيَّةِ أَوْ المَفْعولِ بِهَا ، فِي حِينِ كَثِيرًا مَا نَرَى الرَّجُلَ مُهَيْمِنًا فِي حِوَارَاتِهِ مَعَ المَرْأَةِ مُتَحَكِّمًا فِي مَسارِ التَّبادُلِ وَاثِقًا وَمُخادِعًا لِلْمَرْأَةِ مُربِكًا لها. وَعَلَى عَكْسِ ذَلِكَ فِي المَقْطَعِ الحِواريِّ اَلَّذِي بَيْنَ أَيْدينا كَانَ انْفِتاحُ الحِوارِ مُرْتهنًا بِحُضُورِ المَرْأَةِ وانْغِلاقُهُ بِانْصِرافِها فِي حِينِ ظَلَّ الرَّجُلُ ثَابِتًا فِي المَكانِ . فَضْلًا عَنْ تَحْكُمِ الفَتاةِ فِي مَسارِ الحِوارِ فَهِيَ مِنْ يُقَرِّرُ مَوْضوعَ الحَديثِ وَهِيَ مِنْ يُعْلِنُ تَغْييرَهُ وَهُوَ مَا أَثَارَ حَيْرَةَ الرَّاوِي البَطَلِ وَعَجْزِهِ عَنْ فَهْمِ مُبَرِّراتِ تَغْييرِها لِلْمَوْضُوعِ " أَتَراك عِنْدَئِذٍ أَرَدْتِ أَنْ تَضَعِي نِهايَةً لِمَوْجَةِ الحُزْنِ اَلَّتِي فَاجَأَتْنِي (. .) أَمْ فَقَطْ كُنْتِ تُرِيدِينَ أَنْ تُطَبِّقِي بَرْنامَجَ زيارَتِكَ عِنْدَمَا نَهَضْتِ فَجْأَةً وَقُلْتِ : أَيُمْكِنُنِي أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى لَوْحاتِكَ ؟ "24

وَبِتَأَمُّلِ خِطابِ البَطَلِ تَتَبَدَّى لَنَا جُمْلَةٌ مِنْ المُؤَشِّراتِ الدّالَّةِ عَلَى ضَعْفِهِ وَارْتِباكِهِ فَضْلًا عَنْ كَمِّ الاِنْفِعالِ واللَّهْفَةِ فِي كَلامِهِ : " سَأَلْتُكَ بِلَهْفَةٍ "25 بِالْإِضَافَةِ إِلَى عِدَّةِ مَشاعِرَ وَسَمِ الرَّاوِي بِهَا خِطابَهُ تَعَوَّدْنَا أَنْ نَرَاهَا مُلازِمَةً لِخِطَابِ المَرْأَةِ فِي الرِّوايَةِ الغَراميَّةِ ، كَالْارْتِباكِ " أَخْفَيْتَ ارْتِباكِي بِسُؤالٍ سَاذَجٍ " 26. أَوْ قَوْلُهُ " أَتُرَى مَا اَلَّذِي أَرْبَكَنِي لَحْظَتَها أَكْثَر ، عَيْناكِ اَللَّتَانِ أَصْبَحَ لَهُما فَجْأَةً لَوْنٌ آخَرُ تَحْتَ الضَّوْءِ ؟ أَمْ مَا قُلْتِهُ قَبْلَ ذَلِكَ " 27. وَمِن ذَلِكَ الدَّهْشَةُ اَلَّتِي مَثَّلَتْ شُعُورًا صاحَبَ خِطابَ البَطَلِ فِي مَواطِنِ عِدَّة " سَأَلْتُكِ وَأَنَا أَنْتَقِلُ مِنْ دَهْشَةٍ إِلَى أُخْرَى"28 "رحت أتأمّلُك مَدْهُوشا وأنا أحاول أن أضع داخلي شيْئا من التَّرتيب"29

وَمِن العَلاماتِ المُمَيِّزَةِ لَبَطَلِ الرِّوايَةِ فِي هَذَا الحِوارِ كَذَلِكَ انْفِلاتُ الخِطابِ وَعَدَمُ القُدْرَةِ عَلَى مُحاصَرَةِ كَمِّ الكَلامِ وَاَلْبَوْحِ " تُرَانِي قُلْتُ وَقْتَها أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ قَوْلُهُ " 30 وَهِيَ سِمَةٌ كَثِيرًا مَا أَلْحَقَها الرِّوَائِيُّونَ فِي رِواياتِهِمْ العاطِفيَّةِ خاصَّةً بِالْمَرْأَةِ فَضْلًا عَنْ جُنوحِ الرَّجُلِ إِلَى إِدْخالِ الحَيْرَةِ وَالغُمُوضِ دَائِمًا عَلَى المَرْأَةِ وَهُوَ مَا يَبْدُو فِي نَصِّنا مَعْكوسًا إِذْ بَدَتْ الفَتاةُ مُخاتِلَةً فِي أَجْوِبَتِها مُتَعَمِّدَةً التَّلْبيسَ عَلَى مُحاوِرِها وَإِيقاعَهُ فِي حَيْرَةِ الجَوابِ حَتَّى أَنَّهُ شَبَّهَها بِالْأُسْتاذِ اَلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُحَيِّرَ تِلْميذَهُ وَذَلِكَ حِينَ فَاجَأَتْهُ بِسُؤالٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ. فَضْلًا عَنْ حِرْصِها عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى التَّبادُلِ وَخَتْمِه بِأَقْوالِها كَمَا يَبْدُو مِنْ وَصْفِ الرَّاوِي لِإِجابَةٍ لَهَا مُفْحِمَةٌ لِلْبَطَلِ " قُلْتِ بِإِصْرارٍ أُنْثَى عَلَى قَوْلِ الكَلِمَةِ الأَخيرَةِ 31"

وَلَعَلَّ مِنْ اَلْطَرافَةِ أَنْ نَرَى البَطَلَ يُحَاوِلُ إِخْفاءَ عَلاقَةٍ لَهُ جِنْسيَّةٍ مَعَ فَتاةٍ فَرَنْسيَّةٍ تُدْعَى " كِرِيسْتِين " وَعَدَمَ التَّحَدُّثِ عَنْهَا مُعَلِّلًا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ " كُنْت أَخَافُ بِأَنْ يَكونَ لِتِلْكَ القِصَّةِ تَأْثِيرٌ سَلْبِيٌّ عَلَى عَلاقَتِنا أَوْ عَلَى نَظْرَتِكَ إِلَيَّ"32 وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ جُرْأَتِهِ اَلَّتِي لَمْ تَسْمَحْ لَهُ كَذَلِكَ بِأَنْ يُصَرِّحَ بِكُلِّ مَا خَامَرَهُ مِنْ مَشاعِرِ الاعجابِ والاِنْجِذابِ فَاكْتَفَى بِتَرْدِيدِ عِباراتِ الغَزَلِ فِي داخِلِهِ فَلَمْ تَبْلُغْ مَسامِعَ الحَبيبَةِ المُقابِلَةُ لَهُ وَظَلَّتْ عِباراتُ الغَزَلِ حَبيسَةَ سُطورِ

الرِّوايَةِ اَلَّتِي لَمْ يَكُنْ قَدْ كَتَبَها بَعْدُ مِنْ قَبيلِ مُنَاجَاتِهِ البَاطِنِيَّةِ لَهَا أَثْناءَ الحِوارِ بِقَوْلِهِ " يَا ياسَمينَةً تَفَتَّحَتْ عَلَى عَجَلٍ . . عِطْرًا أَقَلَّ حَبِيبَتِي . . عِطْرًا أَقَلَّ "33

أَوْ قَوْلِه أَثْناءَ شُرْبِها كَأْس الْمَاءِ اَلَّذِي قَدَّمَهُ لَهَا : " ارْتوي مِنْ ذَاكِرَتِي سَيِّدَتِي . . فَكُلُّ هَذَا الحَنينِ لَكَ . . وَدَعِي لِي مَكَانًا هُنَا مُقابِلًا لَكَ.."34

وَفِي مُقابِلِ هَذِهِ الصّورَةِ اَلَّتِي عَكَسَتْهَا رَدَهاتُ الحِوارِ وَخَفاياه لِلرَّجُلِ ، بَدَتْ الفَتاةُ أَكْثَرَ جُرْأَةً فِي أَقْوالِها وَحَرَكاتِها وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُ لَنَا مِنْ خِلالِ طَرِيقَتِها فِي الرَّدِّ عَلَى البَطَلِ حِينَ سَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ زيارَتِها : " تَأَمَّلْتِنِي وَرَاحَتْ عَيْناكِ تَتَسَكَّعَانِ فِي مَلامِحِ وَجْهِي وَ كَأَنَّهُمَا تَبْحَثَانِ عَنْ جَوابٍ لِسُؤالٍ مُفاجِئٍ ثُمَّ قُلْتِ فِي نَظْرَةٍ مُثْقَلَةٍ بِالْوُعُودِ وَالاِغْرَاءِ ، لِأَنَّكَ قَدْ تَكونُ يَقيني المُحْتَمَل"35

و بِنَفْسِ الغُموضِ اَلَّذِي بَرَعَ الرِّوَائِيُّونَ فِي إِسْباغِهِ عَلَى أَبْطالِ رِواياتِهِمْ مِنَ الرِّجالِ تَبَدَّتْ شَخْصِيَّةُ الفَتاةِ المُراوَغَةُ وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى بِوُضُوحٍ عِنْدَ نِهايَةِ اللِّقاءِ اَلَّذِي خَتَمَتْهُ بِقَوْلِهَا " بِابْتِسَامَةٍ لَا تَخْلُو مِنْ كَيْدٍ نِسائِيٍّ : مَا دُمْتَ تُصِرُّ عَلَى مَعْرِفَتِي . . لَنْ أَحْرِمَكَ مِنْ هَذِهِ اَلْمُتْعَةِ" 36 وَتَكَفَّلَ المَقْطَعُ السَّرْدِيُّ اللّاحِقُ بِتَأْكِيدِ هَذِهِ الصّورَةِ ، وَصورَةِ المَرْأَةِ الغامِضَةِ المُتَلاعِبَةِ بِمَشاعِرِ عاشِقِها " وانْغَلَقَ الْبَابُ خَلْفَ ابْتِسامَتِكَ تِلْكَ دُونَ أَنْ أَفْهَمَ مَا كُنْتِ تَعْنينَهُ بِالتَّحْدِيدِ ، ذَهَبْتِ بِالْغُمُوضِ الضَّبابِيِّ اَلَّذِي جِئْتِ بِهِ ، نَفْسهُ (. .) وَأَنَا أَتَساءَلُ بِشَيْءٍ مِنْ الذُّهولِ : تَرَانَا التَقَيْنا حَقًّا"37

وَتَزْدَادُ المُفارَقَةُ اَلَّتِي يَنِمُّ عَنْهَا هَذَا المَقْطَعُ الحِواريُّ بُرُوزًا بِاضْطِلاعِ البَطَلِ بِدور اَلْرواية حيث الخطاب مسند إلى ضَمِيرِ المتكلم مُذكّرا ، كاسِرًا بِذَلِكَ قاعِدَةً دَأَبَتْ عَلَيْهَا الرِّوَائِيَّاتُ العَرَبِيّاتُ بِإِسْنَادِ السَّرْدِ إِلَى الرّاوِيَةِ البَطَلَةِ " قَصْدَ اسْتِرْجاعِ السَّيْطَرَةِ عَلَى الواقِعِ مِنْ خِلالِ امْتِلاكِ سُلْطَةِ السَّرْدِ الذّاتِيّ بِضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ وَذَلِكَ فِي سِيَاقِ المَنْظورِ النِّسائِيِّ اَلَّذِي يَنمُّ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الهَيْمَنَةِ عَلَى النَّصِّ مُقابِلَ هَيْمَنَةِ الرَّجُلِ عَلَى الواقِعِ"(38)

وَبِهَذِهِ المُراوَغَةِ قَلَبَتْ أَحْلام مُسْتَغَانَمِي مَوازِينَ القُوَى عَلَى النَّمَطِ السّائِدِ مِنْهَا لِتَرْسُمَ مَلامِحَ امْرَأَةٍ مُرَاوِغَةٍ تنْشد النِّسْيانَ مِنْ خِلالِ الرِّوايَةِ اَلَّتِي تَنْوِي نَشْرَها بِعُنْوَانٍ مُنْعَطَفِ النِّسْيانِ فِي حِينِ جَعَلَتْ الرَّجُلَ الطَّرَفَ الأَضْعَفَ فِي العَلاقَةِ الغَرامِيَّةِ وَهُوَ مَا دَفَعَهُ إِلَى كِتابَةِ رِوايَةٍ ناشَدًا مِنْ خِلالِها تَخْليدَ قِصَّتِهِ وَهُوَ اَلَّذِي اعْتَرَفَ فِي الفَصْلِ الأَوَّلِ مِنْ الرِّوايَةِ بِأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرْهَا : " أَنَا اَلَّذِي لَمْ أَخْتَرْ أَبَدًا تِلْكَ القِصَّةَ "(39) وَمِن ثَمَّ مَثَّلَتْ لُعْبَةُ الضَّمائِرِ بَيْنَ مُذَكَّرٍ وَمُؤَنَّثٍ فِي خَلْقِ ديناميكيَّةٍ إِضافِيَّةٍ عَلَى المَقْطَعِ الحِواريّ وَفِي تَنَوُّعِ دَلالاتِهِ وَتَداخُلِها . وَيَقودُنا هَذَا المَلْمَحُ المَخْصوصُ فِي كِتابَةِ المَقْطَعِ الحِواريّ وَتَرْكِيبَةِ الضَّمائِرِ فِيه إِلَى طَرْحِ إِشْكالِيّاتِ لُغَةِ الحِوارِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْه مِنْ قَضَايَا تَتَعَلَّقُ خاصَّةً بِعَلاقَةِ النَّصِّ الحِواريّ وَلُغَتِهِ بِنَصِّ الرِّوايَةِ كَكُلٍّ، مِنْ جِهَةٍ، وَعَلاقَةِ الكاتِبَةِ وَلُغَتِهَا بِلُغَةِ النَّصِّ الحِواريّ والرُّؤْيَةِ الفَنِّيَّةِ اَلَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا هَذِهِ العَلاقَةُ المَخْصوصَةُ بَيْنَ مُخْتَلِفِ مُكَوِّناتِ الكِتابَةِ داخِلَ المَقْطَعِ الحِواريّ من جهة أخرى.

4.لغة الحوار: الخصوصيَّات والدَّلالة:

مِنْ أَهَمِّ الْجَدَلِيَّاتِ المَطْروحَةِ فِي قَضَايَا الرِّوايَةِ المُعاصِرَةِ قَضِيَّةُ اللُّغَةِ وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَعاظُمِ قيمَةِ الخِطابِ الرِّوائِيِّ عَلَى حِسابِ الحِكايَةِ المَرْوِيَّةِ فِي الكِتابَةِ الرِّوائِيَّةِ المُعاصِرَةِ إِذْ أَصْبَحَ الإِبْداعُ الرِّوائِيُّ يُقاسُ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى

بِمَدَى الإبْداعِ فِي الخِطابِ واللُّغَةِ وَمَدَى ثَرَائِهَا وَتَجاوُزِها لِلْمَأْلُوفِ والسّائِدِ إِذْ اللُّغَةُ تَنْدَرِجُ فِي إِطارِ الكَيْفيَّةِ والطَّرِيقَةِ اَلَّتِي كَتَبَ بِهَا النَّصُّ .

ومن أهمّ مستويات النَّظر في قضية اللُّغة:

- عَلاقَةُ لُغَةِ الخِطابِ بِاَلْمَحْكِيّ وَمَدَى مُطابَقَتِها لَهُ أَوْ تَجاوُزِها لَهُ وانْحيازِها عَنْهُ .
- العَلاقَةُ بَيْنَ لُغَةِ الرَّاوِي الكاتِبِ وَلُغَةِ الشَّخْصِيَّاتِ القَصَصيَّةِ المُتَحاوِرَةِ .
- فِي المُسْتَوَى الأَوَّلِ نَزَعَتْ رِوايَةُ ذاكِرَةُ الجَسَدِ إِلَى ذاتيَّةِ الخِطابِ مَا سَمَحَ لَهَا بِالتَّصَرُّفِ فِي اللُّغَةِ وَإِعادَةِ تَشْكيلِها وَفْقَ ذَاتِ المُتَكَلِّمِ وَرُؤاه .

وَقَدْ تَرَاوَحَتْ لُغَةُ الخِطابِ بَيْنَ وَظِيفَتَيْنِ : النَّقْلُ الجافُّ لِلْوَاقِعِ المَرْوِيّ بِاعْتِمَادِ لُغَةٍ هَدَفُها الإفْصاحُ والْبَيانُ لَا غَيْرَ وَبَيْنَ تَشْكيلِ الواقِعِ بِلُغَةٍ لَا تَهْدِفُ إِلَى مُطابَقَةِ الواقِعِ بِقَدْرِ مَا تَسْعَى إِلَى خَلْقِ نَصٍّ جَميلٍ وَصورَةٍ أَدَبيَّةٍ ذَاتِ طاقَةٍ تَعْبيريَّةٍ إِيحَائِيَّةٍ عاليَةٍ .

وَيَنْدَرِجُ ذَلِكَ فِي إِطارِ ظاهِرَةٍ مُمَيّزَةٍ لِلرِّوَايَةِ الحَديثَةِ مُتَمَثِّلَةٍ فِي خَلْقِ الصّورَةِ الأَدَبيَّةِ النَّثْرِيَّةِ القائِمَةِ عَلَى خَلْقِ أَشْكالٍ جَديدَةٍ مِنْ التَّناغُمِ بَيْنَ القَوْلِ والْقائِلِ وَاَلْمَقولِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هَذِهِ الوَظيفَةُ الِانْشَائِيَّةُ مُقْتَصِرَةً فِي النَّقْدِ القَديمِ عَلَى الصّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ .

وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ تَقارُبٌ وَتَداخُلٌ بَيْنَ الخِطابِ الرِّوائِيّ والْخِطابِ الشِّعْرِيّ حَتَّى كادت المَسافاتُ بَيْنَهُمَا تَنْتَفِي أَحْيَانًا ، وَتَجَلَّى هَذَا البُعْدُ الفَنِّيُّ الجَماليُّ فِي نَصِّنا مِنْ خِلالِ جُنوحِ المُتَحَاوِرِينَ إِلَى التَّعْبيرِ المُجازِي بِطَرِيقَةٍ تَتَجاوَزُ فِيهَا العَلاقاتُ بَيْنَ اللُّغَةِ اَلنّاقِلَةِ اَلْواصِفَةِ"40 أو قوله:" مُرْتَبِكًا جَلَسَ الوَطَنُ وَقَالَ بِخَجَلٍ."41 وقوله:" وَتَفَجَّرَتْ قسنطينة يَنابيعَ داخِلي."42 أو "أَحْتَسِيك كَمَا تُحْتَسى عَلَى مَهَلٍ قَهْوَةٌ قسنْطِينِيَّةٌ ." 43

وَفِي هَذِهِ الأَمْثِلَةِ لَا يُمْكِنُنَا قِيَاسُ العَلاقَةِ بَيْنَ القَوْلِ وَاَلْمَقولِ بِالْمَعَايِيرِ اَلْبلاغيَّةِ المُعْتادَةِ مِنْ قَبيلِ البَحْثِ عَنْ عَلاقَةِ شَبَه أَوْ كِنايَةٍ مِنْ خِلالِ صِفَةٍ مِنْ الصِّفاتِ ، فَلَا وَجْهَ مِنْ هَذِهِ الوُجوهِ فِي العَلاقَةِ بَيْنَ المَرْأَةِ المَوْصُوفَةِ مَثَلًا وَبِاَلْوَطَنِ مِنْ خِلالِ فِعْلِ الجُلوسِ وَلَا وَجْهَ مِنْ وُجوهِ الِاسْتِعارَةِ المَأْلُوفَةِ بَيْنَ مَشاعِرِ البَطَلِ وَمَدينَةِ قسنطينة اَلَّتِي اتَّخَذَتْ شَكْلَ النَّهْرِ أَوْ الشَّلّالَ اَلْمُتَفَجِّرَ .

وَتَتَدَعَّمُ خاصّيَّةُ الشَّاعِرِيَّةِ فِي اللُّغَةِ بِظُهُورِ خِطابٍ غِنائِيّ وِجْدانيّ فِي شَكْلِ مُناجاةٍ شِعْرِيَّةٍ وَغَزَلٍ يَخْرُجُ عَنْ المَأْلوفِ مِنْ حَيْثُ الصّوَرُ والطُّرُقُ التَّعْبيريَّةُ وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي الخِطابِ المُتَبادَلِ بَيْنَ الشَّخْصِيَّاتِ المُتَحاوِرَةِ أَوْ فِي خِطابِ الرَّاوِي المُتَكَلِّمِ مِنْ قَبيلِ رَدِّ البَطَلِ عَلَى ضيفَتِهِ بِقَوْلِهِ : لَا تَأْسَفِي ، فَقَدْ جِئْتُ مُتَأَخِّرَةً عَنْ العُمرِ بِعُمر ."44 أَوْ مُخاطَبَةُ الرَّاوِي لِذَاتِهِ أَوْ لِلْحَبِيبَةِ مُرْسِلًا إِلَيْهَا بِبَوْحٍ باطِنيٍّ لَمْ يَصِلْ إِلَى سَمِعِها آنَذَاكَ قَائِلًا : يَا ياسَمينَةً تَفَتَّحَتْ عَلَى عَجَلٍ . . عِطْرًا أَقَلُّ حَبِيبَتِي ، عِطْرًا أَقَلّ ، لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ لِلذَّاكِرَةِ عِطْرًا اَيْضًا ، هوَ عِطْرُ الوَطَنِ ."45

حَمَلَتْ هَذِهِ الأَمْثِلَةُ صُوَرًا شِعْرِيَّةً تَحْتَاجُ إِلَى اَلتَّحْليلِ مِنْ أَجْلِ بَيانِ قيمَتِها بِحَدِّ ذَاتِهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ خِطابٌ مُدْرَجٌ فِي الخِطابِ الرِّوائِيّ مُتَّصِلٌ بِهِ وَمُنْفَصِلٌ عَنْهُ فِي آنٍ واحِدٍ وَهُوَ مَا يُثِيرُ قَضيَّةَ تَعَدُّدِ الأَجْنَاسِ الأَدَبيَّةِ داخِلَ الرِّوايَةِ العَرَبيَّةِ المُعاصِرَةِ لَاسِيَّمَا أَنَّ هَذَا النَّمَطَ مِنْ الأَقْوالِ البَاطِنِيَّةِ اَلَّتِي مَيَّزَتْ المَقْطَعَ الحِواريَّ اَلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَحْليلِهِ قَدْ التَبَسَ فِيهَا اتِّجاهُ القَوْلِ بَيْنَ المَرْأَةِ الماثِلَةِ أَمَامَ البَطَلِ لَحْظَةَ القَوْلِ والْمَرْأَةِ اَلَّتِي يوَجِّهُ لَهَا الرَّاوِي البَطَلُ الخِطابَ

عَلَى مَدَى كامِلِ الرّوايَةِ وَهُوَ مَا يُدْرَجُ مِثْلَ هَذِهِ الأَقْوالِ فِي سِيَاقِ الخِطابِ التَّرسُّلي فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ اَلَّذِي يُمَثِّلُ فِيه جُزْءًا مِنْ المَقْطَعِ الحِواريّ . وَتَقودُنا هَذِهِ الخُصوصيَّةُ فِي كِتابَةِ الحِوارِ والْكِتابَةِ الرّوائيَّةِ عُمُومًا إِلَى المُسْتَوَى الثَّانِي مِنْ مُسْتَوَياتِ القِراءَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِلُغَةِ الحِوارِ فِي عَلاقَتِها بِلُغَةِ الشَّخْصِيَّاتِ وَلُغَةِ الكاتِبَةِ .

يَتَعَلَّقُ هَذَا المُسْتَوَى الثَّانِي بِتَدارُسِ ظاهِرَةِ التَّداخُلِ بَيْنَ اللُّغَةِ الرّاوِيَةِ واللُّغَةِ المَرْوِيَّةِ أَيْ لُغَةُ الشَّخْصِيَّاتِ المُتَكَلِّمَةِ فَلَا يُمْكِنُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ إِذْ لَهُما نَفْسُ الخَصائِصِ الأُسلوبِيَّةِ الفَنِّيَّةِ فَهَلْ يَعْنِي ذَلِكَ اتِّحَادًا بَيْنَ لُغَةِ الشَّخْصِيَّاتِ وَ لُغَةِ الكاتِبَةِ وَإِلَى أَيِّ حَدٍّ يُمْكِنُ فَصْلُ كِتابَةِ الكاتِبَةِ عَنْ كِتابَةِ الرَّاوِي المُتَخَيَّلِ؟

وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يُمْكِنُنَا مُلاحَظَةُ تَصَرُّفِ الكاتِبَةِ فِي مَلْفوظِ الشَّخْصِيَّاتِ وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ أَسَاسًا فِي تَرْجَمَةِ المَلْفوظِ الفَرَنْسِيّ إِلَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ : "توقَّف سَمْعي عِنْدَ كَلِمَة "نَحْنُ الإِثْنَيْن" إِنَّهَا بِالْفَرَنْسِيَّةِ تَأْخُذُ بُعْدًا مُوسِيقِيًّا فَرِيدًا ." 46

"قُلْتُ فَجْأَةً بِلَهْجَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ ".

وَيُشِيرُ ذَلِكَ إِلَى قَضِيَّةٍ طَالَمَا تَطارَحَها نُقّادُ الرّوايَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِلُغَةِ الحِوارِ وَهَلْ يَجُوزُ لِلْكَاتِبِ التَّدَخُّلُ فِي صياغَتِها أَمْ لَا ، وَمَا زَادَ فِي تَعَقُّدِ الوَضْعِيَّةِ فِي رِوايَةِ "مُسْتَغَانَمِي" أَنَّ هَذَا الأَمْرَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حَيْرَةٍ أَمَامَ شَخْصيّاتٍ تَتَكَلَّمُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَيَجِبُ كِتابَتُها بِالْعَرَبِيَّةِ بَلْ هوَ مُتَعَلِّقٌ كَذَلِكَ بِقَضِيَّةٍ تَتَبَنَّاهَا الرّوائِيَّةُ وَهِيَ قَضِيَّةُ الهويَّةِ والثَّقافَةِ فاللُّغة هِيَ أَيْضًا مَوْضوعٌ أَساسي مِنْ اَلْمَواضيعِ اَلَّتِي كَانَتْ شاغِلَةً لِلشَّخْصِيَّاتِ المُتَكَلِّمَةِ وَبِذَلِكَ سَيَحْمِلُ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ الكاتِبَةِ قَصْدِيَّةً ذَاتَ بُعْدٍ رَمْزِيٍّ عِنْدَمَا تَجِدُ نَفْسَها مُضْطَرَّةً أَنْ تُعْلِمَ القارِئَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِنْ كَانَ الكَلامُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَمْ بِالْفَرَنْسِيَّةِ.

(عُدْتُ لِأَسْأَلَك بِالْعَرَبِيَّةِ)

(سَأَلتِني بِالْفرَنْسِيَّةِ)

وَهَذَا التَّداخُلُ بَيْنَ مَشاغِلِ الكاتِبَةِ وَمَشاغِلِ الشَّخْصِيَّاتِ القَصَصِيَّةِ المُتَحاوِرَةِ يَزِيدُ مِنْ ثَراءِ الخِطابِ الرّوائِيّ وَمِن تَعْقيدِهِ كَذَلِكَ لَا سِيمَا إِذَا وَجَدْنَا أَنَّ الشَّخْصِيَّاتِ المُتَحاوِرَةَ هِيَ نَفْسُها تُبْدي مَواقِفَها مِنْ قَضِيَّةِ الكِتابَةِ وَلُغَةِ الكِتابَةِ اَلَّتِي تُناسِبُ كُلَّ كاتِبٍ. مِنْ ذَلِكَ تَبْريرُ البَطَلَةِ لِاخْتيارِها الكِتابَةَ بِالْعَرَبِيَّةِ دُونَ الفَرَنْسِيَّةِ بِقَوْلِهَا : "كَانَ يُمْكِنُ أَنْ أَكْتُبَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَلَكِنَّ العَرَبِيَّةَ هِيَ لُغَة قَلْبِي وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا بِهَا . نَحْنُ نَكْتُبُ باللُّغة التي نُحسُّ بها الأشياء." ثم قولها: "المُهِمُّ هوَ اللُّغَةُ اَلَّتِي نَتَحَدَّثُ بِهَا لِأَنْفُسِنَا لَا تِلْكَ اَلَّتِي نَتَحَدَّثُ بِهَا لِلْآخَرِينَ." 47

وَلَعَلَّنَا لَا نَعْدو الصَّوابَ إِذَا قُلْنَا أَنَّ هَذَا المَوْقِفَ هوَ لَيْسَ سِوَى مَوْقِفِ أَحْلام مُسْتَغَانَمِي نَفْسِها مِنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ وَقَدْ عَبَّرَتْ عَنْهُ فِي عِدَّةِ مُناسَباتٍ وَحِواراتٍ أُجْرِيَتْ مَعَهَا.

ويطرح استعمال الكاتبة للُّغة الفرنسيَّة غير المترجمة في هذا النص (Nous deux) سُؤالَ عَلاقَةِ المَرْجِعِ الرّوائيّ بِالْمَرْجِعِ الواقِعِيّ وَهُوَ سُؤالٌ أَثَارَ جَدَلًا عِنْدَ النُّقّادِ. و بِالْإِضَافَةِ إِلَى قضية اخْتيارِ الكاتِب بين نَقْلِ اللُّغَةِ الأَجْنَبِيَّةِ كَمَا هِيَ أو تَرْجَمَتِها لِلْقَارِئِ، يُطْرَح مَوْضوع اللَّهْجَةِ واللُّغَةِ العامّيَّةِ.

وفي هذا المقطع الحواري المدروس يَبْدُو بِوُضُوحٍ مِيلُ أَحْلام مُسْتَغَانَمِي إِلَى نَقْلِ الحِوارِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى وَلَيْسَ بِالْعَامِّيَّةِ وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا إِلَى كَوْنِ الشَّخْصِيَّاتِ القَصَصِيَّةِ ذَاتِ مُسْتَوَى ثَقافِيٍّ عَالٍ مَا يَسْمَحُ

لِلْكَاتِبَةِ بِالْمُضِيّ قُدُمًا فِي هَذَا الْخِيَارِ لَا سِيَّمَا عِنْدَ طَرْحِ المُتَحَاوِرِيْن لِأَفْكارٍ ذَاتِ طابَعٍ فِكْرِيّ فَلْسَفِيّ يُمْكِنُ مُناقَشَتُها بِالْعَرَبِيَّةِ وَإِنْ كَانَ الحِوارُ بِالْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَى قَدْ شَمِلَ فِي " ذاكِرَةِ الجَسَدِ " كَذَلِكَ أُمور الحَياةِ العاديَّةِ وَهُوَ مُنافٍ لِقاعِدَةِ المُطابَقَةِ لِلْمَرْجِعِ . رَغْمَ أَنَّ الكاتِبَةَ جَعَلَتْ الفَتاةَ فِي بِدايَةِ الحِوارِ تَتَكَلَّمُ مَرَّةً واحِدَةً بِلَهْجَةٍ عامّيَّةٍ جَزائِرِيَّةٍ "كَأْسَ مَاءٍ يعيشك" وَهُوَ أَمْرٌ مَقْصودٌ لِإِبْرَازِ تَأْثِيرِ حُضورِ الهويَّةِ الجَزائِرِيَّةِ وَأَثَرِها فِي البَطَلِ اَلَّذِي رَبَطَ ذَلِكَ بِذِكْرَى الوَطَنِ اَلَّذِي يَفْتَقِدُهُ فِي غُرْبَتِهِ .

وَإِذَا كَانَ خِيَارُ التَّخاطُبِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى مُتَنَاسِبًا مَعَ ثَقَافَةِ بَطَلَيْ الرِّوايَةِ وَمُسْتَواهما العِلْمِيّ سَنُلَاحِظُ فِي مَواطِن أُخْرَى مِنْ الرِّوايَةِ أَنَّ شَخْصيّات جَزائِرِيَّةً لَيْسَ لَهَا حَظٌّ واسِعٌ مِنْ الثَّقافَةِ تَتَكَلَّمُ هِيَ أَيْضًا بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى (مَثَلًا شَقيقُ خالِدٍ وَزَوْجَتِهِ) . وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُ أَنَّ مُسْتَغَانَمِي فَضَّلَتْ جَماليَّةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى وَبُعْدَهَا الفَنِّيَّ عَلَى واقِعيَّةِ الحَكْيِ وَمِصْداقيَّتِهِ .

5.الخاتمة:

وَقَفْنَا فِي هَذِهِ القِراءَةِ الدِّلاليَّةِ المَخْصوصَةِ لِلْمقْطِعِ الحِواريّ المَدْروسِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ القَضَايَا والدَّلالاتِ ارْتَبَطَتْ فِي جانِبٍ مِنْهَا بِهَيْكَلِ الحِوارِ فِي شَكْلِهِ الْعَامّ وَخُصوصيّاتِ بِنَائِهِ وَفِي جانِبٍ آخَرَ بِمَضامينِ الأَقْوالِ المُتَبادَلَةِ فِي سِيَاقِهَا النَّصّيّ المَخْصوصِ بِتَلازُمِ الْمَلْفُوظَاتِ المَنْطُوقَةِ بِالْمُبَطَّنَةِ غَيْرِ المُصَرَّحِ بِهَا، وَذَلِكَ فِي إِطارِ الخُصوصيَّةِ المُمَيِّزَةِ لِخِطَابِ رِوايَةِ ذاكِرَةِ الجَسَدِ عُمُومًا مُتَمَثِّلَةً فِي تَداخُلِ ضَمَائِرِ السَّرْدِ بِضَمائِرِ التَّخاطُبِ أَثْناءَ الحِوارِ كَمَا ارْتَبَطَتْ مِنْ ناحيَةٍ ثالِثَةٍ بِلُغَةِ الحِوارِ فِي عَلاقَةٍ بِلُغَةِ النَّصِّ الرِّوائيّ عُمُومًا وَإِكْراهاتِ الكِتابَةِ فِيه . فَفِي الجانِبِ الأَوَّلِ ارْتَبَطَ مَسارُ الحِوارِ بِفَضاءٍ مَخْصوصٍ ذِي رَمْزِيَّةٍ وَهُوَ فَضاءُ مَعْرِضِ الرَّسْمِ بِاعْتِبَارِهِ فَضاءً ثَقافِيًّا بِامْتِيَازٍ ، فَتَوَزَّعَتْ حَلَقاتُ الحِوارِ بَيْنَ رَدَهاتِهِ فِي وَضْعٍ ثابِتٍ فِي المكان متحول في الزَّمان، إذ عَبْرَه ارْتحلَ المتحاوران في ماضيهما وجذورهما الجغرافيَّة والثَّقافية، ثم في وضع حركة جرت أثناءها مداخلات الطرفيْن رابطةً حاضرهما بمستقبلهما وظاهرهما ببواطنهما.

أما في الجانب الثَّاني فقد كشفت مضامين الحوار مفارقة تجلَّت من خلال مواجهة البطل/الرَّجل - البطلة/المرأة انْطوتِ على دلالتيْ التَّكافؤ من جهة والتَّضارب من جهة ثانية، فكان اشتراكهما في الهويَّة والأصول وافتراقهما في التَّصوُّرات والرؤى. فضلا عن مفارقة بين ظاهر للنَّصّ الحواري يلتزم بنواميس المحادثة وقوانينها في العموم و يتجاوزها من حيث طبيعة الأدوار التي يقوم بها كل من المتحاوريْن، إذ عَكَسَتْ قراءتنا التَّحليليَّة لطبيعة تلك الأدوار وطريقة توزيعها بعض وجوه الخَرْق للسُّنن السَّائدة في تصوير العلاقة الغراميَّة في الرِّواية العربيَّة رغم الخضوع لسُنَن الكتابة وخطِّيَّة الحوار على عكس ما ذهب إليه كُتَّاب آخرون من أنماط التَّبادل في نصوص روائيَّة معاصرة كسرت المألوف شكلا وكرَّسته مضمونا.

أمَّا في المستوى الثَّالث من القراءة فقد تَبدَّت لنا مظاهر التَّجاوز كثيرة ثريَّة تتعلَّق بالخطاب وبلاغته وعلاقته بالواقع رغم الوقوع في التَّجاذب، بين لغة قصصيَّة ترتكز على جماليَّة الفُصْحَى وآفاق التَّعبير الثَّرية فيها ونواميس جديدة في القصِّ يتعامل فيها الرِّوائيُّون مع ملفوظ شخصيَّاتهم تعاملا مُستقلًّا عن طرقهم الخاصة في الكتابة والتَّعبير عمومًا .

وفي نهاية المطاف يمكن اعتبار هذه القراءة ملامسة لقضايا مختلفة أثارتها معالجتنا لمعاني مقطع حواري محدد. وكانت منطلقا لطرح جملة من المسائل تشمل خصوصيات الكتابة الرِّوَائيَّة المعاصرة عموما ودافعا للمزيد من التعمق في كيفيات تشكيل الخطاب الرِّوَائي وتثمين عناصره المختلفة وخاصة منها الحوار وفق منظور جديد لمنزلة هذا العنصر من البناء السردي عموما.

الهوامش

1- Raymond Jean, Roman. in. Encyclopedia Universalis.UP.CIT_P.142

2- البشير الوسلاتي، فن القص عند يوسف ادريس، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة - الطبعة الأولى 2008 ص 449

3- Blanchot Maurice, La douleur du dialogue . Le livre à venir . Ed Seuil 1959 . P.P 208 - 209

4- Françoise Rullier - Theuret, Le dialogue dans le roman, Hachette. Paris .2001, P5

5- تودوروف " les genres de discours" ص 86، Edition du seuil - Paris 1978

6- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار أمية للنشر الطبعة الثانية 1989 ص 111

7- بوشوشة بن جمعة، السردية والحداثة في كتابة الرواية النسائية التونسية - المغاربية للطباعة والإشهار، تونس 2009 ص 47

8- ذاكرة الجسد ص 76

9- تودوروف " les genres de discours" ص 88

10- الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر تونس 2000 - ص229

11- م.ن.ص 77

12- م.ن.ص 77

13- م.ن.ص 81

14- م.ن.ص 87

15- Françoise Armengaud In Encyclopedia Universalis. OP. Cit. P365

16- م.ن.ص 87

17- م.ن.ص 77

18- م.ن.ص78

19- م.ن.ص 82

20- م.ن.ص 83

21- م.ن.ص 86

22- م.ن.ص 81

23- م.ن.ص 81

24- م.ن.ص 81

25- م.ن.ص 80

26- م.ن.ص 82

27- م.ن.ص 82

28- م.ن.ص 82

29- م.ن.ص 83

30- م.ن.ص 79

31- م.ن.ص 79

32- م.ن.ص 85

33- م.ن.ص 78

34- م.ن.ص 79

35- م.ن.ص 88

36- م.ن.ص 88

37- م.ن.ص 89

38- سوسن ناجي رضوان صورة الرجل في القص النسائي، مجلة إبداع القاهرة يناير 1993 ص 34

39- ذاكرة الجسد ص 9

40- م.ن.ص 77

41- م.ن.ص.ن

42- م.ن.ص 78

43- م.ن.ص 77

44- م.ن.ص 77

45- م.ن.ص 77

46- م.ن.ص 82

47- م.ن.ص 82

المصادروالمراجع

1-البشير الوسلاتي، فن القص عند يوسف ادريس، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة - الطبعة الأولى 2008 .

2-بوشوشة بن جمعة، السردية والحداثة في كتابة الرواية النسائية التونسية - المغاربية للطباعة والإشهار، تونس 2009 .

3-سوسن ناجي رضوان صورة الرجل في القص النسائي، مجلة إبداع القاهرة يناير 1993.

4-الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر تونس 2000 .

5-عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار أمية للنشر الطبعة الثانية 1989 .

6-Blanchot Maurice, La douleur du dialogue . Le livre à venir . Ed Seuil 1959 .

7-Françoise Armengaud In Encyclopedia Universalis. OP. Cit.

8-Françoise Rullier - Theuret, Le dialogue dans le roman, Hachette. Paris .2001,

9-Raymond Jean, Roman. in. Encyclopedia Universalis.UP.CIT2

10-Todorov "les genres de discours ، "Edition du seuil - Paris ***1978***